جدلية الإنسان والعمران:
بناء الإنسان أساس التنمية المستدامة
من خلال السنة النبوية

أ. د. أحمد الخاطب

أستاذ التاريخ والحضارة الإسلامية،

مؤسسة دار الحديث الحسنية، جامعة القرويين، المغرب

ملخص

تأتي أهمية هذا البحث من مركزية الإنسان في الإسلام من جهة، وفي التنمية المستدامة من جهة أخرى؛ وخطورة ما يترتب عن السلوك البشري إزاء أخيه الإنسان وإزاء المنظومة البيئية من اختلالات في منظومة التنمية المستدامة وتهديد لحاضر ومستقبل البشرية.

وفي سبيل ذلك، يطرح الموضوع إشكالاً مركزيًّا للدراسة والتحليل، وهو: ما أثر الإسلام في بناء الإنسان الجدير بإقامة العمران والحضارة وتحقيق التنمية المستدامة من خلال السنة النبوية؟

وقد انتظم البحث في مبحثين، تناول الأول مكانة الإنسان في الإسلام بين شرف التكريم ومسؤولية الاستخلاف؛ بينما تناول الثاني جملة من خصائص الإنسان الجدير بتحقيق التنمية المستدامة في الإسلام انطلاقًا من السنة النبوية. وقد تمت صياغة هذه الخصائص في شكل ثنائيات تربط بينها علاقة جدلية، وهي: جدلية الإيمان والتنمية المستدامة؛ وجدلية الصلاح والإصلاح والتنمية المستدامة؛ وجدلية الأخلاق والتنمية المستدامة: وجدلية العلم والتنمية المستدامة؛ وجدلية الإيجابية والتنمية المستدامة: وجدلية الرحمة والتنمية المستدامة؛ ثم جدلية التسامح والتنمية المستدامة.

وتوصل البحث إلى جملة من النتائج. من أهمها: التأكيد على الأولوية القصوى التي يحتلها بناء الإنسان وتكوينه على أساس القيم التي تزخر بها السنة النبوية باعتبارها مرجعًا علميًّا ودينيًّا وتربويًّا لمقاربة قضايا البيئة والتنمية المستدامة ومعالجة اختلالاتها، تفاديا للمآل الخطير الذي يتهددها والبشرية معها، بفعل انتشار الممارسات والسياسات غير الرشيدة في التعامل مع المنظومة البيئية.

الكلمات المفاتيح: الإنسان- العمران - السنة النبوية - البيئة - التنمية المستدامة.

Abstract

This research is important because of the central role of the human being in Islam on one hand and in sustainable development on the other; and because of the grave consequences that result from human behavior toward fellow human beings and the environmental system - consequences that can lead to imbalances in sustainable development and threaten the present and future of humanity.

In this context, the topic raises a central problem for study and analysis, which is as follows: What is the impact of Islam on building the human being capable of establishing civilization and culture and achieving sustainable development through the Prophetic tradition?

The research is organized into two sections. The first discusses the status of the human being in Islam, situated between the honor of exaltation and the responsibility of stewardship; while the second examines a series of characteristics of the human being deemed worthy of achieving sustainable development in Islam based on the Prophetic tradition. These characteristics have been formulated as dialectical pairs that are interrelated, namely: the dialectic of faith and sustainable development; the dialectic of righteousness and reform in sustainable development; the dialectic of ethics and sustainable development; the dialectic of knowledge and sustainable development; the dialectic of positivity and sustainable development; the dialectic of mercy and sustainable development; and finally, the dialectic of tolerance and sustainable development.

The research reached several conclusions, the most important of which is the emphasis on the utmost priority of building and shaping the human being on the basis of the values inherent in the Prophetic tradition. This tradition should serve as a scientific, religious, and educational reference for addressing environmental issues and sustainable development challenges and for remedying their imbalances—thus avoiding the grave outcome that threatens both sustainable development and humanity due to the widespread adoption of unsound practices and policies in dealing with the environmental system.

Keywords: The Human Being, Civilization, the Prophetic Tradition, the Environment, Sustainable Development.

مقدمة البحث

بعد عقود من انشغال البشرية في العالم المعاصر بمفهوم «التنمية الاقتصادية»، والتي يعد النمو الاقتصادي محورها الأساس؛ وبعد الجاذبية التي اكتسبها مفهوم «التنمية البشرية» مع مطلع الألفية الثالثة باعتبارها نظرية في التنمية الاقتصادية-الاجتماعية والتي تهدف إلى دعم قدرات الفرد وتحسين مستوى معيشته وأوضاعه الاجتماعية؛ أصبح مفهوم «التنمية المستدامة» من المفاهيم المركزية في تحليل أزمات التنمية في العالم الراهن واستشراف آفاقها المستقبلية. ذلك أنه أمام الاختلالات الكبرى التي تعتري المنظومة التنموية العالمية، على مختلف المستويات، وخاصة على المستوى البيئي، لم يعد التفكير في راهن التنمية ومستقبلها منفصلا عن التفكير في وضعية المنظومة البيئية ومستقبلها أيضًا؛ مشكلا بذلك هاجسًا مؤرقًا لحكماء العالم وقادة الرأي والمجتمع الدولي بصفة عامة. فالتنمية المستدامة، إذن، تشكل جيلاً جديدًا من أجيال المقاربات الأممية لإشكاليات التنمية في العالم المعاصر، لا تلغي أهمية التنمية الاقتصادية والتنمية البشرية؛ بل تؤسس عليهما رؤيتها للتنمية في الحاضر والمستقبل، ولكنها تضيف إليهما ركنًا أساسيًّا من أركان التنمية ظل مغيَّبًا في المقاربات السابقة، ويتعلق الأمر بالمنظومة البيئية بمختلف مكوناتها الطبيعية، باعتبار أن البيئة ليست فقط الوسط الذي يحتضن كفاح الإّنسان في سبيل التنمية؛ بل أيضًا باعتبار المقاربة البيئية للتنمية هي المقاربة الكفيلة بمراعاة حقوق الأجيال الحاضرة والمستقبلية في استدامة التنمية والبيئة معًا، ومعالجة مختلف الأخطار التي تهدد مستقبل الحياة الطبيعية والبشرية فوق سطح الأرض؛ ولذلك تشكل التنمية المستدامة «دعوة عالمية للعمل للقضاء على الفقر وصون الأرض وتحسين المعايش في كل مكان»[1] في جدلية لا تقبل التفكيك. وبعبارة أخرى، فالتنمية المستدامة دعوة عالمية لاستدامة العمران البشري -أي الحضارة الإنسانية- فوق سطح الأرض، وتفادي ما يمكن أن يلحق به من الخراب والدمار نتيجة التصرفات البشرية غير المتوازنة إزاء البيئة[2].

1- انظر الموقع الإلكتروني للأمم المتحدة: https: //www.un.org/sustainabledevelopment/ar/ تاريخ التصفح: 01/11/2024.

2- يعتمد البحث مفهوم العمران البشري بمعنى الحضارة البشرية، مستندا في ذلك إلى نظرية ابن خلدون في العمران. ذلك أن السؤال الجوهري الذي تحكم في نظرية العمران عند ابن خلدون في المقدمة هو كيف يمكن للإنسان أن يعمر الأرض أو المعمورة؟ أي كيف يمكن له أن يقيم حضارة فوق الأرض ويحافظ عليها؟ وفي سبيل ذلك، اهتدى إلى سن مجموعة من القوانين العمرانية التي تتحكم في نشأة العمران وتضبط تطوره الإيجابي أو السلبي. وتبين أن ابن خلدون أولى أهمية كبرى للعلاقة بين العمران والبيئة. انظر: ابن خلدون ت808هـ، 1406م، المقدمة، تحقيق إبراهيم شبوح وإحسان عباس، ج1، تونس، 2006م.

وفي سبيل ذلك، انعقدت العديد من الملتقيات والمؤتمرات الدولية حول البيئة والتنمية المستدامة، وصدر الكثير من التقارير العالمية، وأعلن عن سلسلة من التوصيات والاتفاقيات والمعاهدات الدولية تحت سقف الأمم المتحدة، تصب في مجملها في ترشيد السلوك البشري إزاء الموارد الطبيعية والبيئية والحفاظ عليها وتقليل أخطار التلوث والاحتباس الحراري وغيرها من الآفات المناخية، حماية للحياة في الحاضر والمستقبل ضمانًا لحقوق أجيال المستقبل في حياة آمنة مطمئنة[1]. غير أنه وعلى الرغم من الجهود الكبرى المبذولة على مستوى الأمم المتحدة وعلى المستويات المحلية وخاصة في بيئتنا العربية والإسلامية؛ إلا أنه يلاحظ على مجمل المبادرات المعتمدة في معالجة إشكاليات التنمية المستدامة، غياب المقاربات التكاملية بين العلوم في هذا المجال، وخاصة العلوم الإسلامية، سواء من حيث التشخيص والبحث في العوامل والأسباب، أو من حيث التماس الحلول وعلاج الاختلالات. ولعل مما يؤكد ذلك، غياب أو تغييب علماء الدين عن مراكز ومنتديات صناعة القرار الدولي بشأن التنمية المستدامة، سواء تعلق الأمر بمؤتمرات الأرض والتغيرات المناخية أو غيرها من القضايا[2].

في هذا السياق، يكتسي مؤتمر جامعة الوصل حول «التنمية المستدامة في السنة النبوية»، أهمية كبرى باعتباره فرصة علمية دولية للنخب العالمة لتنوير البشرية بما تكتنزه السنة النبوية الشريفة من قيم ومبادئ وأحكام وتوجيهات لصياغة المواقف وتأطير الممارسات في سبيل التنمية المستدامة الراشدة. ويشرفني أن أتقدم بهذه المشاركة، تحت عنوان: «جدلية الإنسان والعمران: بناء الإنسان أساس التنمية المستدامة من خلال السنة النبوية»[3]. وتأتي أهمية هذا البحث من مركزية الإنسان في الإسلام من جهة، وفي

1- انظر الموقع الإلكتروني للأمم المتحدة: https: //www.un.org/ar/conferences/environment تاريخ التصفح 10/11/2024.

2- انعقدت مؤخرًا في 5 نوفمبر 2024م في العاصمة الأذربيجانية باكو القمة العالمية لقادة ورموز الأديان التي نظمتها إدارة مسلمي القوقاز، بالتعاون مع مجلس حكماء المسلمين، ورئاسة مؤتمر الأطراف COP28، وبرنامج الأمم المتحدة للبيئة، واللجنة الحكوميَّة للمؤسسات الدينية في أذربيجان. تحت عنوان الأديان العالمية من أجل كوكب أخضر؛ بحضور أكثر من 300 من قادة ورموز الأديان، وممثلي الحكومات، ومنظَّمات المجتمع المدني، وصناع القرار والسياسات من مختلف أنحاء العالم.

3- نشير إلى وجود جملة من الدراسات التي اعتنت بالتنمية المستدامة من منظور إسلامي، غير أن الدراسات التي اعتنت بإشكالية تأهيل الإنسان للاضطلاع بمسؤولية هذه التنمية، تبقى محدودة. ومن أهمها: عودة راشد الجيوسي، الإسلام والتنمية المستدامة (رؤية كونية جديدة)، عمان، الأردن، 2013م؛ ركزت هذا الدراسة على بعض مقومات التنمية المستدامة: التعليم، والتراحم الاجتماعي، والحكم =

التنمية المستدامة من جهة أخرى؛ وخطورة ما يترتب عن السلوك البشري إزاء أخيه الإنسان وإزاء المنظومة البيئية من اختلالات في منظومة التنمية المستدامة وتهديد لحاضر ومستقبل البشرية.

وفي سبيل ذلك، يطرح الموضوع إشكالاً مركزيًّا للدراسة والتحليل، وهو: ما أثر الإسلام في بناء الإنسان الجدير بإقامة العمران والحضارة وتحقيق التنمية المستدامة من خلال السنة النبوية؟ وتتفرع عن هذا الإشكال المركزي، تساؤلات من أهمها: ما مدى حضور خطاب التنمية المستدامة في السنة النبوية؟ وما أهمية ذلك الحضور في بناء منظور راشد للتنمية المستدامة؟ كيف تتجلى علاقة الإنسان بالتنمية المستدامة في السنة النبوية؟ ما ماهية الإنسان المؤهل لخوض معركة التنمية المستدامة والنجاح فيها من خلال السنة النبوية؟ كيف يمكن للسنة النبوية الإسهام في بناء الإنسان المؤهل لبناء العمران وتحقيق التنمية المستدامة في العصر الراهن؟ أين يقف الإنسان اليوم، وعلى أية أرضية فكرية وثقافية يجد نفسه، وهو يواجه اختلالات المنظومات التنموية المعاصرة نتيجة المقاربات الخاطئة؟ أي إنسان يمكنه أن يظفر بكسب ثمار مقاصد التنمية المستدامة وفق هدايات الإسلام والسنة النبوية بشكل خاص؟ وماذا بإمكان الإنسان المسلم أن يقدم للإنسانية اليوم في معركة التنمية المستدامة؟

= الرشيد والعدالة، والتلوث والفساد المناخي... في حين تناولت بعض الدراسات والبحوث الجامعية مظاهر التنمية المستدامة في السنة النبوية، مثل: فراس بن ساسي، التنمية المستدامة في السنة النبوية، بحث لنيل الماجستير في الحديث الشريف، المعهد العالي للحضارة الإسلامية، تونس، 2017-2018م. ركزت هذه الدراسة ومثيلاتها على مجالات التنمية المستدامة: التنمية الاقتصادية المستدامة، والتنمية الاجتماعية المستدامة، والتنمية البيئية المستدامة، مع معالجة بعض عوائق التنمية. دون أن نغفل بعض الدراسات والبحوث التي راكمتها ندوة الحديث الشريف في دوراتها السابقة وخاصة الندوة العلمية الثالثة حول القيم الحضارية في السنة النبوية والتي تطرقت إلى جملة من القيم والتي عالجت قضايا فرعية (البيئة، التربية والتعليم، معاملة الأعداء وقت الحرب، معاملة ذوي الحاجات الخاصة...). لذلك، نعتقد أن المقاربة النسقية لإشكالية تأهيل الإنسان للاضطلاع بمسؤولية التنمية المستدامة ما تزال في أمس الحاجة للدرس والتحليل. ويطمح هذا البحث إلى الإسهام في بناء تصور نسقي في هذا المشروع الحيوي: مشروع بناء الإنسان الجدير بتحقيق التنمية المستدامة.

المبحث الأول: الإنسان في الإسلام بين شرف التكريم ومسؤولية الاستخلاف

المطلب الأول: الإنسان وشرف التكريم:

اقتضت المشيئة الإلهية أن يخلق الله تعالى الكون بمختلف كائناته ومكوناته، من الذرة إلى المجرة، وما دون ذلك، مما لا يعلمه إلا الخالق ﷻ؛ وأن يجعل الإنسان خليفة له في الأرض. فكرّمه وفضّله على سائر المخلوقات. قال تعالى: ﴿وَلَقَدْ كَرَّمْنَا بَنِيٓ ءَادَمَ﴾ الإِسرَاء: 70. وقال (عز وجل): ﴿وَإِذْ قَالَ رَبُّكَ لِلْمَلَٰٓئِكَةِ إِنِّي جَاعِلٌ فِي ٱلْأَرْضِ خَلِيفَةً قَالُوٓاْ أَتَجْعَلُ فِيهَا مَن يُفْسِدُ فِيهَا وَيَسْفِكُ ٱلدِّمَآءَ وَنَحْنُ نُسَبِّحُ بِحَمْدِكَ وَنُقَدِّسُ لَكَ قَالَ إِنِّيٓ أَعْلَمُ مَا لَا تَعْلَمُونَ﴾ البَقَرَة: 30.

وبموجب التكريم والاستخلاف الرباني للإنسان، بيّن الحق ﷻ خصوصية الإنسان بين جميع المخلوقات، فأكدَّ خصوصية خلقه وخلقته، إذ خلقه الله تعالى بيديه ونفخ فيه من روحه، ثم أمر الملائكة بالسجود له تعبيرًا عن سمو مكانته في الكون. قال سبحانه: ﴿إِذْ قَالَ رَبُّكَ لِلْمَلَٰٓئِكَةِ إِنِّي خَٰلِقُۢ بَشَرًا مِّن طِينٍ ٧١ فَإِذَا سَوَّيْتُهُۥ وَنَفَخْتُ فِيهِ مِن رُّوحِي فَقَعُواْ لَهُۥ سَٰجِدِينَ ٧٢ فَسَجَدَ ٱلْمَلَٰٓئِكَةُ كُلُّهُمْ أَجْمَعُونَ ٧٣ إِلَّآ إِبْلِيسَ ٱسْتَكْبَرَ وَكَانَ مِنَ ٱلْكَٰفِرِينَ﴾ ص: 71 - 73. وتكريمًا للإنسان؛ أمر الله تعالى بحفظ النفس البشرية وأحاطها بكامل العناية. بل إنه أخرج إبليس من الجنة بسبب عصيانه لأمر الله تعالى بالسجود لآدم عليه السلام وتكبره عليه باعتبار أصل خلقته. بين القرآن الكريم ذلك من خلال الحوار بين الخالق ﷻ وإبليس بشأن هذه المسألة، فقال تعالى: ﴿قَالَ يَٰٓإِبْلِيسُ مَا مَنَعَكَ أَن تَسْجُدَ لِمَا خَلَقْتُ بِيَدَيَّ أَسْتَكْبَرْتَ أَمْ كُنتَ مِنَ ٱلْعَالِينَ ٧٥ قَالَ أَنَا۠ خَيْرٌ مِّنْهُ خَلَقْتَنِي مِن نَّارٍ وَخَلَقْتَهُۥ مِن طِينٍ ٧٦ قَالَ فَٱخْرُجْ مِنْهَا فَإِنَّكَ رَجِيمٌ ٧٧ وَإِنَّ عَلَيْكَ لَعْنَتِيٓ إِلَىٰ يَوْمِ ٱلدِّينِ﴾ ص: 75 - 78. وحرّم ﷻ قتل النفس البشرية، فقال: ﴿وَلَا تَقْتُلُواْ ٱلنَّفْسَ ٱلَّتِي حَرَّمَ ٱللَّهُ إِلَّا بِٱلْحَقِّ﴾ الإِسرَاء: 33. وبيَّن الحق ﷻ أن من قتل نفسًا بشرية بغير حق فكأنما قتل جميع الناس، لما في ذلك من الاعتداء على حياة الإنسان وكرامته، فقال تعالى: ﴿مِنْ أَجْلِ ذَٰلِكَ كَتَبْنَا عَلَىٰ بَنِيٓ إِسْرَٰٓءِيلَ أَنَّهُۥ مَن قَتَلَ نَفْسًۢا بِغَيْرِ نَفْسٍ أَوْ فَسَادٍ فِي ٱلْأَرْضِ فَكَأَنَّمَا قَتَلَ ٱلنَّاسَ جَمِيعًا﴾ المَائِدَة: 32.

وأكدت السنة النبوية الشريفة حرمة قتل النفس البشرية بغير حق. فقال رسول الله ﷺ: «لَزوالُ الدُّنيا أهونُ على اللهِ من قتلِ رجلٍ مسلمٍ»[1]. وقال أيضًا: «لوْ أَنَّ أَهْلَ

1- أخرجه الترمذي في جامعه، دار الغرب الإسلامي، بيروت، لبنان، 1996، 1998م، أبواب الديات عن رسول الله ﷺ، باب ما جاء في تشديد قتل المؤمن، (3/69) حديث رقم (1395).

السَّمَاءِ وَأَهْلَ الْأَرْضِ اشْتَرَكُوا فِي دَمِ مُؤْمِنٍ لَأَكَبَّهُمُ اللهُ فِي النَّارِ»[1]. ودعا إلى اجتناب السبع الموبقات، ومن بينها «قتل النفس التي حرم الله إلا بالحق»[2]. وخطب في حجة الوداع مؤكدا حرمة المساس بدم المسلم وعرضه، فقال: «كُلُّ الْمُسْلِمِ عَلَى الْمُسْلِمِ حَرَامٌ دَمُهُ، وَمَالُهُ، وَعِرْضُهُ...[3]». وشدّد على تحريم قتل الإنسان المعاهد، فقال ﷺ: «مَنْ قَتَلَ مُعَاهَدًا لَمْ يَرِحْ رَائِحَةَ الْجَنَّةِ، وَإِنَّ رِيحَهَا تُوجَدُ مِنْ مَسِيرَةِ أَرْبَعِينَ عَامًا[4]». وكما حرم الإسلام قتل النفس البشرية إلا بالحق، فقد حرم أيضًا قتل الإنسان لنفسه، فقال تعالى: ﴿وَلَا تَقْتُلُوٓاْ أَنفُسَكُمۡۚ إِنَّ ٱللَّهَ كَانَ بِكُمۡ رَحِيمٗا﴾ النِّسَاء: 29. وقال النبي ﷺ: «مَنْ تَرَدَّى مِنْ جَبَلٍ فَقَتَلَ نَفْسَهُ فَهُوَ فِي نَارِ جَهَنَّمَ يَتَرَدَّى فِيهِ خَالِدًا مُخَلَّدًا فِيهَا أَبَدًا، وَمَنْ تَحَسَّى سُمًّا فَقَتَلَ نَفْسَهُ فَسُمُّهُ فِي يَدِهِ يَتَحَسَّاهُ فِي نَارِ جَهَنَّمَ خَالِدًا مُخَلَّدًا فِيهَا أَبَدًا، وَمَنْ قَتَلَ نَفْسَهُ بِحَدِيدَةٍ فَحَدِيدَتُهُ فِي يَدِهِ يَجَأُ بِهَا فِي بَطْنِهِ فِي نَارِ جَهَنَّمَ خَالِدًا مُخَلَّدًا فِيهَا أَبَدًا»[5]. وفي إطار حفظ الحياة البشرية وسلامتها، دعا الإسلام إلى حفظ العقل، فحرّم كل ما يضر به من الخمر وكل المسكرات والمخدرات التي تفسد العقول والأبدان والأديان والأموال بنص القرآن[6]. وقال ﷺ: «كُلُّ

1- أخرجه الترمذي في جامعه، أبواب الديات عن رسول الله ﷺ، باب الحكم في الدماء (3/71) حديث رقم (1398).

2- قال رسول الله ﷺ: (اجْتَنِبُوا السَّبْعَ الْمُوبِقَاتِ قَالُوا: يَا رَسُولَ اللهِ وَمَا هُنَّ قَالَ: الشِّرْكُ بِاللهِ وَالسِّحْرُ وَقَتْلُ النَّفْسِ الَّتِي حَرَّمَ اللهُ إِلَّا بِالْحَقِّ وَأَكْلُ الرِّبَا وَأَكْلُ مَالِ الْيَتِيمِ وَالتَّوَلِّي يَوْمَ الزَّحْفِ وَقَذْفُ الْمُحْصَنَاتِ الْمُؤْمِنَاتِ الْغَافِلَاتِ). أخرجه البخاري في صحيحه، دار طوق النجاة، بيروت، ط1، 1422هـ، كتاب الوصايا، باب قول الله تعالى إن الذين يأكلون أموال اليتامى ظلما (4/10) حديث رقم (2766).

3- أخرجه مسلم في صحيحه، دار إحياء الكتب العربية، القاهرة، كتاب البر والصلة والآداب، باب تحريم ظلم المسلم وخذله واحتقاره (8/10) حديث رقم (2564).

4- أخرجه البخاري في صحيحه، كتاب الجزية، باب إثم من قتل معاهدا بغير جرم (4/99) حديث رقم (3166).

5- أخرجه البخاري في صحيحه، كتاب الطب، باب شرب السم والدواء به وبما يخاف منه والخبيث (2/96) حديث رقم (5778).

6- من ذلك قوله تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ إِنَّمَا ٱلۡخَمۡرُ وَٱلۡمَيۡسِرُ وَٱلۡأَنصَابُ وَٱلۡأَزۡلَٰمُ رِجۡسٞ مِّنۡ عَمَلِ ٱلشَّيۡطَٰنِ فَٱجۡتَنِبُوهُ لَعَلَّكُمۡ تُفۡلِحُونَ ٩٠ إِنَّمَا يُرِيدُ ٱلشَّيۡطَٰنُ أَن يُوقِعَ بَيۡنَكُمُ ٱلۡعَدَٰوَةَ وَٱلۡبَغۡضَآءَ فِي ٱلۡخَمۡرِ وَٱلۡمَيۡسِرِ وَيَصُدَّكُمۡ عَن ذِكۡرِ ٱللَّهِ وَعَنِ ٱلصَّلَوٰةِۖ فَهَلۡ أَنتُم مُّنتَهُونَ ٩١ وَأَطِيعُواْ ٱللَّهَ وَأَطِيعُواْ ٱلرَّسُولَ وَٱحۡذَرُواْۚ فَإِن تَوَلَّيۡتُمۡ فَٱعۡلَمُوٓاْ أَنَّمَا عَلَىٰ رَسُولِنَا ٱلۡبَلَٰغُ ٱلۡمُبِينُ﴾ المَائِدَة: 90 - 92.

شَرَابٍ أَسْكَرَ فَهُوَ حَرَامٌ»[1]. وقال أيضًا: «كُلُّ مُسْكِرٍ خَمْرٌ، وَكُلُّ مُسْكِرٍ حَرَامٌ»[2]. وتتوالى الأدلة النقلية من القرآن الكريم والسنة النبوية الشريفة لتثبت المكانة السامية للإنسان في الكون وتؤكد دعوة الإسلام إلى حفظ النفس البشرية وحفظ عقله وعرضه. فكان ذلك من أهم مقاصد الشريعة الإسلامية. يقول الإمام الشاطبي في بيان قصد الشارع في وضع الشريعة: «اتفقت الأمة - بل سائر الملل- على أن الشريعة وضعت للمحافظة على الضروريات الخمس: وهي الدين، والنفس، والنسل، والمال، والعقل»[3]. ويؤكد الفكرة ذاتها قائلا: «ومجموع الضروريات خمسة، وهي: حفظ الدين، والنفس، والنسل، والمال، والعقل، وقد قالوا: إنها مراعاة في كل ملة»[4].

ولما كان الاضطلاع بمسؤولية خلافة الله في الأرض يقتضي تمكين الإنسان من المقومات البيولوجية والروحية لذلك، فقد زوّد الحق ﷻ الإنسان بما يكفل له القيام بهذه المهمة على أمثل وجه، فمكّنه من «العلم» الذي لم يمنح لغيره من المخلوقات وفي مقدمتهم الملائكة، رغم سمو مكانتهم وجليل خدمتهم بتنفيذ أوامر الله تعالى، ومنها تبليغ الوحي. فقال تعالى: ﴿ وَعَلَّمَ ءَادَمَ ٱلْأَسْمَآءَ كُلَّهَا ثُمَّ عَرَضَهُمْ عَلَى ٱلْمَلَـٰٓئِكَةِ فَقَالَ أَنۢبِـُٔونِى بِأَسْمَآءِ هَـٰٓؤُلَآءِ إِن كُنتُمْ صَـٰدِقِينَ ﴿٣١﴾ قَالُوا۟ سُبْحَـٰنَكَ لَا عِلْمَ لَنَآ إِلَّا مَا عَلَّمْتَنَآ ۖ إِنَّكَ أَنتَ ٱلْعَلِيمُ ٱلْحَكِيمُ ﴿٣٢﴾ قَالَ يَـٰٓـَٔادَمُ أَنۢبِئْهُم بِأَسْمَآئِهِمْ ۖ فَلَمَّآ أَنۢبَأَهُم بِأَسْمَآئِهِمْ قَالَ أَلَمْ أَقُل لَّكُمْ إِنِّىٓ أَعْلَمُ غَيْبَ ٱلسَّمَـٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَأَعْلَمُ مَا تُبْدُونَ وَمَا كُنتُمْ تَكْتُمُونَ ﴾ البَقَرَة: 31 - 33.

وفي علاقة بالعلم وتأكيدًا على تنوع مصادره بين السماء والأرض، أي بين الوحي والكون، أنعم الله تعالى على الإنسان بنعمة العقل، وجعله الأداة الكبرى للمعرفة والتفكير، والبحث والنظر في الكون، بل وتحقيق الاستخلاف وعمارة الأرض على ضوء الوحي. فدعاه إلى إعمال العقل والتفكر والتدبر في آيات الكون لتعرف الخالق سبحانه وتوحيده وعبادته، والتماس الرزق في الحياة الدنيا، والسعي لتحقيق التنمية المستدامة، مسترشدا بالوحي. إذ الإنسان المسلم مطالب بتحقيق التكامل وتنزيل التحالف بين النقل والعقل في تدبير

1- أخرجه البخاري في صحيحه، كتاب الوضوء، باب لا يجوز الوضوء بالنبيذ ولا المسكر (1/58) حديث رقم (242).

2- أخرجه مسلم في صحيحه، كتاب الأشربة، باب بيان أن كل مسكر خمر وأن كل خمر حرام (6/100) حديث رقم (2003).

3- الشاطبي، كتاب الموافقات، تحقيق وتعليق/ الحسين أيت سعيد، منشورات البشير بنعطية، فاس المغرب، ط1، 1438هـ، 2017م، (2/50).

4- المصدر نفسه (3/18).

معاشه الدنيوي ومآله الأخروي. فالعقل على ضوء المنظور التنموي المادي أداة للكسب الدنيوي المادي فحسب، لكنه من المنظور الديني الإسلامي هو أداة لتحقيق المقاصد الشرعية من خلق الإنسان في الدنيا والآخرة، بتحالف مع الوحي. ولذلك جاءت الدعوات القرآنية للتفكر والتعقل لأغراض تخص أحيانا المصالح الدنيوية والأخروية للإنسان، مثل قوله (عز وجل): ﴿إِنَّ فِى خَلْقِ ٱلسَّمَـٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَٱخْتِلَـٰفِ ٱلَّيْلِ وَٱلنَّهَارِ وَٱلْفُلْكِ ٱلَّتِى تَجْرِى فِى ٱلْبَحْرِ بِمَا يَنفَعُ ٱلنَّاسَ وَمَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ مِنَ ٱلسَّمَآءِ مِن مَّآءٍ فَأَحْيَا بِهِ ٱلْأَرْضَ بَعْدَ مَوْتِهَا وَبَثَّ فِيهَا مِن كُلِّ دَآبَّةٍ وَتَصْرِيفِ ٱلرِّيَـٰحِ وَٱلسَّحَابِ ٱلْمُسَخَّرِ بَيْنَ ٱلسَّمَآءِ وَٱلْأَرْضِ لَـَٔايَـٰتٍ لِّقَوْمٍ يَعْقِلُونَ﴾ البَقَرَة: 164. ومن آيات التكريم الرباني للإنسان أن جعل العقل مناط التكليف. فقال ﷺ: «رُفِعَ الْقَلَمُ عَنْ ثَلَاثَةٍ: عَنِ النَّائِمِ حَتَّى يَسْتَيْقِظَ، وَعَنِ الْمَعْتُوهِ - أَوْ قَالَ: الْمَجْنُونِ - حَتَّى يَعْقِلَ، وَعَنِ الصَّغِيرِ حَتَّى يَشِبَّ.»[1]. فلا تكليف خارج نطاق العقل. فهو الفيصل بين المسؤولية واللامسؤولية في ميزان الله تعالى.

ومن آيات التكريم أيضًا، تمييز الإنسان عن باقي الخلائق بخاصية التخلق، فهي عنوان تكريم الإنسان، وعنوان كرامته أيضًا. فكما أنه لا إنسانية للإنسان بدون عقل وتعقل؛ فكذلك لا إنسانية للإنسان بدون تخلق بالأخلاق الفاضلة. ولذلك، جعل الله تعالى رسالات الأنبياء في جوهرها دعوة إلى التوحيد والتحلي بفضائل الأخلاق، مؤكدةً على ضرورة بناء المجتمعات الإنسانية على أساس القيم الأخلاقية التي تسمو بالإنسان إلى أعلى مراتب الفضيلة، والترقي به عن مرتبة الرذيلة، إلى أن ختمها الله تعالى برسالة الإسلام على يد نبيه محمد ﷺ. وقد أجمل الرسول الكريم ﷺ رسالته في تتميم مكارم الأخلاق، فقال: «إِنَّمَا بُعِثْتُ لِأُتَمِّمَ مَكَارِمَ الْأَخْلَاقِ»[2]. أو «صَالِحَ الْأَخْلَاقِ» [3]، ووصفه القرآن الكريم بأعلى أوسمة الأخلاق، فقال تعالى: ﴿وَإِنَّكَ لَعَلَىٰ خُلُقٍ عَظِيمٍ﴾ القَلَم: 4. ولذلك، دعا الإسلامُ الناسَ جميعًا إلى التحلي بالقيم الأخلاقية الفاضلة من التسامح والعفو والخير والرحمة وحفظ العهد وغير ذلك من مكارم الأخلاق والفضائل التي تحفظ للإنسانيةَ خصوصيتها وتحافظ لها على أصول التكريم الرباني وتضمن لها استدامة الحياة في أجمل صورها. ودعا بالمقابل

1- أخرجه أحمد في مسنده، جمعية المكنز الإسلامي، دار المنهاج، ط1، 1431هـ، 2010م، مسند العشرة المبشرين بالجنة وغيرهم، مسند علي بن أبي طالب (رضي الله عنه) (1/264) حديث رقم (971).

2- أخرجه البيهقي في سننه الكبير، مجلس دائرة المعارف العمانية بحيدر آباد الدكن، الهند ط1، 1352، 1355هـ، كتاب الشهادات، جماع أبواب من تجوز شهادته ومن لا تجوز، باب بيان مكارم الأخلاق ومعاليها (10/191) حديث رقم (20839).

3- أخرجه أحمد في مسنده، مسند أبي هريرة (رضي الله عنه) (2/1879) حديث رقم (9074).

إلى تجنب الرذائل والمفاسد الأخلاقية الفردية والجماعية من الظلم والفساد بمختلف ألوانه وأشكاله التي تهدد استقرار وسلامة الحياة الإنسانية، فضلا عن كونها طريق للمصير السيء في الحياة الأخروية. فقال ﷺ: «إِنَّ أَحَبَّكُمْ إِلَيَّ وَأَقْرَبَكُمْ مِنِّي فِي الْآخِرَةِ مَحَاسِنُكُمْ أَخْلَاقًا، وَإِنَّ أَبْغَضَكُمْ إِلَيَّ وَأَبْعَدَكُمْ مِنِّي فِي الْآخِرَةِ مَسَاوِئُكُمْ أَخْلَاقًا...»[1].

لم يقتصر التأهيل الرباني للإنسان من أجل الاضطلاع بمسؤولية الاستخلاف على مقومات التكريم الآنفة الذكر، خلقًا وتخليقًا وعقلا وعلمًا وتعليمًا؛ بل مكنه من القدوة الصالحة والهداة المرشدين، من خلال بعث الأنبياء والرسل لتبليغ الرسالات السماوية وهدايته إلى الحق ودعوته إلى الصلاح والإصلاح في الأرض وبناء الحضارة والعمران وتحقيق التنمية والنماء على هدى من الله وتقواه ضمانًا للفلاح في الدنيا والآخرة وتحقيق مقاصد الاستخلاف، فجعلهم حلقة الوصل بين الله عز وجل: المستخلِف، والإنسان: المستخلَف. فجاؤوا عليهم الصلاة والسلام مبشرين ومنذرين[2]. وجعل سبحانه وتعالى اكتمال الإيمان مشروطا بالإيمان بجميع الأنبياء والرسل. فالإيمان بهم هو الركن الرابع من أركان الإيمان. قال تعالى: ﴿ءَامَنَ ٱلرَّسُولُ بِمَآ أُنزِلَ إِلَيۡهِ مِن رَّبِّهِۦ وَٱلۡمُؤۡمِنُونَۚ كُلٌّ ءَامَنَ بِٱللَّهِ وَمَلَٰٓئِكَتِهِۦ وَكُتُبِهِۦ وَرُسُلِهِۦ لَا نُفَرِّقُ بَيۡنَ أَحَدٖ مِّن رُّسُلِهِۦۚ وَقَالُواْ سَمِعۡنَا وَأَطَعۡنَاۖ غُفۡرَانَكَ رَبَّنَا وَإِلَيۡكَ ٱلۡمَصِيرُ﴾ البَقَرَة: 285. وجاء الخطاب القرآني زاجرًا بالنهي عن التفريق في الإيمان بين الأنبياء والرسل، حيث جعله كفرًا. وعرّف ﷺ الإيمان بقوله: «الْإِيمَانُ أَنْ تُؤْمِنَ بِاللهِ، وَمَلَائِكَتِهِ، وَبِلِقَائِهِ، وَرُسُلِهِ، وَتُؤْمِنَ بِالْبَعْثِ»[3]. فالإيمان بالرسل والأنبياء جميعهم من مقومات الإيمان الصحيح. كل ذلك وغيره من الأدلة والبراهين الواردة بوضوح في كتاب الله وسنة نبيه الكريم تكريمًا للإنسان وتأهيلاً له للاضطلاع بمسؤولية الاستخلاف وعمارة الأرض وتحقيق العبودية لله تعالى.

1- أخرجه أحمد في مسنده، مسند الشاميين، حديث أبي ثعلبة الخشني (رضي الله عنه) (7/3979) حديث رقم (18009).

2- قال عز وجل: ﴿إِنَّآ أَوۡحَيۡنَآ إِلَيۡكَ كَمَآ أَوۡحَيۡنَآ إِلَىٰ نُوحٖ وَٱلنَّبِيِّـۧنَ مِنۢ بَعۡدِهِۦۚ وَأَوۡحَيۡنَآ إِلَىٰٓ إِبۡرَٰهِيمَ وَإِسۡمَٰعِيلَ وَإِسۡحَٰقَ وَيَعۡقُوبَ وَٱلۡأَسۡبَاطِ وَعِيسَىٰ وَأَيُّوبَ وَيُونُسَ وَهَٰرُونَ وَسُلَيۡمَٰنَۚ وَءَاتَيۡنَا دَاوُۥدَ زَبُورٗا ١٦٣ وَرُسُلٗا قَدۡ قَصَصۡنَٰهُمۡ عَلَيۡكَ مِن قَبۡلُ وَرُسُلٗا لَّمۡ نَقۡصُصۡهُمۡ عَلَيۡكَۚ وَكَلَّمَ ٱللَّهُ مُوسَىٰ تَكۡلِيمٗا ١٦٤ رُّسُلٗا مُّبَشِّرِينَ وَمُنذِرِينَ لِئَلَّا يَكُونَ لِلنَّاسِ عَلَى ٱللَّهِ حُجَّةُۢ بَعۡدَ ٱلرُّسُلِۚ وَكَانَ ٱللَّهُ عَزِيزًا حَكِيمٗا﴾ النِّسَاء: 163 - 165.

3- أخرجه البخاري في صحيحه، كتاب الإيمان، باب سؤال جبريل النبي ﷺ عن الإيمان والإسلام (1/19) حديث رقم (50).

المطلب الثاني: الإنسان ومسؤولية الاستخلاف:

جاءت مسؤولية الاستخلاف التي أنيطت بالإنسان مقرونة بالأرض باعتبارها مسرح الاستخلاف. فقد اقتضت المشيئة الإلهية أن يكون الإنسان مستخلَفًا في الأرض، جاعلة منه محور الفعل التاريخي والحضاري في الأرض عبر الزمن، تجسيدًا وتنزيلاً واختبارًا لمسؤولية الاستخلاف الإنساني؛ وجاعلة من الأرض في نفس الوقت مسرح البيئة الحاضنة لعملية الاستخلاف، باعتبارها موطن الاستقرار الدنيوي للإنسان، بما فيها من مكونات طبيعية جعلت ملائمة لقيام حياة إنسانية فوقها. ومعنى هذا أن نجاح الإنسان في القيام بمهمة الاستخلاف متوقف على حسن تدبيره لما في الأرض وما عليها من مكونات.

لذلك جاء ذكر الاستخلاف في القرآن الكريم مقرونًا بالأرض أكثر من مرة، منها قوله تعالى: ﴿ وَعَدَ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ مِنكُمْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ لَيَسْتَخْلِفَنَّهُمْ فِى ٱلْأَرْضِ كَمَا ٱسْتَخْلَفَ ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ وَلَيُمَكِّنَنَّ لَهُمْ دِينَهُمُ ٱلَّذِى ٱرْتَضَىٰ لَهُمْ ﴾ النُّور: 55. ومنها قوله تعالى: ﴿ يَٰدَاوُۥدُ إِنَّا جَعَلْنَٰكَ خَلِيفَةً فِى ٱلْأَرْضِ فَٱحْكُم بَيْنَ ٱلنَّاسِ بِٱلْحَقِّ وَلَا تَتَّبِعِ ٱلْهَوَىٰ فَيُضِلَّكَ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِ ۚ إِنَّ ٱلَّذِينَ يَضِلُّونَ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِ لَهُمْ عَذَابٌ شَدِيدٌۢ بِمَا نَسُواْ يَوْمَ ٱلْحِسَابِ ﴾ ص: 26. ومن أجل ذلك، سخر الله تعالى للإنسان ما في السماوات والأرض من المخلوقات، وأنعم عليه بها. فقال سبحانه: ﴿ أَلَمْ تَرَوْاْ أَنَّ ٱللَّهَ سَخَّرَ لَكُم مَّا فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِى ٱلْأَرْضِ وَأَسْبَغَ عَلَيْكُمْ نِعَمَهُۥ ظَٰهِرَةً وَبَاطِنَةً ﴾ لُقمَان: 20. فسخّر له الأنعام للركوب، والأكل، والمنافع، والمشارب، قال تعالى: ﴿ أَوَلَمْ يَرَوْاْ أَنَّا خَلَقْنَا لَهُم مِّمَّا عَمِلَتْ أَيْدِينَآ أَنْعَٰمًا فَهُمْ لَهَا مَٰلِكُونَ ﴿٧١﴾ وَذَلَّلْنَٰهَا لَهُمْ فَمِنْهَا رَكُوبُهُمْ وَمِنْهَا يَأْكُلُونَ ﴿٧٢﴾ وَلَهُمْ فِيهَا مَنَٰفِعُ وَمَشَارِبُ ۖ أَفَلَا يَشْكُرُونَ ﴾ يس: 71 - 73.

ومن كرم الله تعالى على الإنسان وسائر المخلوقات، الإنعام عليهم بالماء الذي جعله منبع الحياة، قال سبحانه: ﴿ وَجَعَلْنَا مِنَ ٱلْمَآءِ كُلَّ شَىْءٍ حَىٍّ ﴾ الأَنبِيَاء: 30. ولفت الخالق ﷻ أنظار الإنسان إلى نعمة إعداد الأرض للزراعة بسبب نعمة نزول المطر، فقال سبحانه: ﴿ فَلْيَنظُرِ ٱلْإِنسَٰنُ إِلَىٰ طَعَامِهِۦٓ ﴿٢٤﴾ أَنَّا صَبَبْنَا ٱلْمَآءَ صَبًّا ﴿٢٥﴾ ثُمَّ شَقَقْنَا ٱلْأَرْضَ شَقًّا ﴿٢٦﴾ فَأَنۢبَتْنَا فِيهَا حَبًّا ﴿٢٧﴾ وَعِنَبًا وَقَضْبًا ﴿٢٨﴾ وَزَيْتُونًا وَنَخْلًا ﴿٢٩﴾ وَحَدَآئِقَ غُلْبًا ﴿٣٠﴾ وَفَٰكِهَةً وَأَبًّا ﴿٣١﴾ مَّتَٰعًا لَّكُمْ وَلِأَنْعَٰمِكُمْ ﴾ عَبس: 24 - 32. وارتباطًا بنعمة الماء، سخر الله تعالى للإنسان البحار والأنهار، وما تكتنزه من الثروات للأكل والزينة وتحقيق مختلف المنافع. كما سخر له الرياح باعتبارها مصدرًا للخير في البر والبحر. وسخر له ما في باطن الأرض من ثروات معدنية وغيرها، وأرشده إلى حسن استعمالها تحقيقا للمصالح ودرءًا للمفاسد. فقال تعالى عن معدن الحديد مبينًا فضله وبأسه في نفس الوقت:

﴿وَأَنزَلْنَا الْحَدِيدَ فِيهِ بَأْسٌ شَدِيدٌ وَمَنَافِعُ لِلنَّاسِ﴾ الحَدِيد: 25. وقال عن معدن النحاس: ﴿يُرْسَلُ عَلَيْكُمَا شُوَاظٌ مِّن نَّارٍ وَنُحَاسٌ فَلَا تَنتَصِرَانِ﴾ الرَّحمَٰن: 35. وقال عن الذهب والفضة باعتبارهما من شهوات الإنسان في الدنيا: ﴿زُيِّنَ لِلنَّاسِ حُبُّ الشَّهَوَاتِ مِنَ النِّسَاءِ وَالْبَنِينَ وَالْقَنَاطِيرِ الْمُقَنطَرَةِ مِنَ الذَّهَبِ وَالْفِضَّةِ وَالْخَيْلِ الْمُسَوَّمَةِ وَالْأَنْعَامِ وَالْحَرْثِ ۗ ذَٰلِكَ مَتَاعُ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا ۖ وَاللَّهُ عِندَهُ حُسْنُ الْمَآبِ﴾ آل عِمرَان: 14. وأوجب الله تعالى شكر النعم والاعتراف بها لنيل رضوان الله ودوامها، وجعل جحودها والاستعلاء بها على العباد من أسباب زوالها والحرمان منها. قال تعالى: ﴿وَإِذْ تَأَذَّنَ رَبُّكُمْ لَئِن شَكَرْتُمْ لَأَزِيدَنَّكُمْ ۖ وَلَئِن كَفَرْتُمْ إِنَّ عَذَابِي لَشَدِيدٌ﴾ إبرَاهِيم: 7. وتتوالى الأدلة على مبدأ التسخير المتولد عن مبدأ التكريم والاستخلاف، مما يؤكد جدلية الإنسان والعمران في المنظور الإسلامي، تحقيقًا لعبودية الله تعالى.

غير أن استخلاف الله تعالى للإنسان ليس مطلقًا، بل إنه مقيد بشروط؛ وبقدر ما هو تكريمٌ منَّ به الله تعالى على الإنسان، بقدر ما هو مسؤولية واختبار له في الدنيا ومحدد لمصيره في الآخرة. ولذلك، ورد العديد من الآيات القرآنية التي ربطت مآل الإنسان بحسن اضطلاعه بمسؤولية الاستخلاف. فجاء الإيمان والعمل الصالح طريقا للاستخلاف. قال تعالى: ﴿وَعَدَ اللَّهُ الَّذِينَ آمَنُوا مِنكُمْ وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ لَيَسْتَخْلِفَنَّهُمْ فِي الْأَرْضِ كَمَا اسْتَخْلَفَ الَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ وَلَيُمَكِّنَنَّ لَهُمْ دِينَهُمُ الَّذِي ارْتَضَىٰ لَهُمْ وَلَيُبَدِّلَنَّهُم مِّن بَعْدِ خَوْفِهِمْ أَمْنًا ۚ يَعْبُدُونَنِي لَا يُشْرِكُونَ بِي شَيْئًا ۚ وَمَن كَفَرَ بَعْدَ ذَٰلِكَ فَأُولَٰئِكَ هُمُ الْفَاسِقُونَ﴾ النُّور: 55. وقال سبحانه: ﴿وَنُرِيدُ أَن نَّمُنَّ عَلَى الَّذِينَ اسْتُضْعِفُوا فِي الْأَرْضِ وَنَجْعَلَهُمْ أَئِمَّةً وَنَجْعَلَهُمُ الْوَارِثِينَ﴾ القَصَص: 5. وفي مقابل ذلك، فإن الإخلال بشروط الاستخلاف يؤدي إلى المآل الآخر، وهو نزع نعمة الاستخلاف واستبدال القوم المستخلفين بقوم آخرين غيرهم والتمكين لهم. قال تعالى: ﴿فَإِن تَوَلَّوْا فَقَدْ أَبْلَغْتُكُم مَّا أُرْسِلْتُ بِهِ إِلَيْكُمْ ۚ وَيَسْتَخْلِفُ رَبِّي قَوْمًا غَيْرَكُمْ وَلَا تَضُرُّونَهُ شَيْئًا ۚ إِنَّ رَبِّي عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ حَفِيظٌ﴾ هُود: 57. وقال سبحانه: ﴿وَرَبُّكَ الْغَنِيُّ ذُو الرَّحْمَةِ ۚ إِن يَشَأْ يُذْهِبْكُمْ وَيَسْتَخْلِفْ مِن بَعْدِكُم مَّا يَشَاءُ كَمَا أَنشَأَكُم مِّن ذُرِّيَّةِ قَوْمٍ آخَرِينَ﴾ الأَنعَام: 133.

وهكذا، اقتضت المشيئة الإلهية أن تناط مسؤولية الاستخلاف بالإنسان، مع ما يترتب عن ذلك من مسؤوليات عمارة الأرض وإقامة العمران البشري. وبعبارة أخرى: فالإنسان هو المسؤول عن التنمية في الأرض، وهو أساس التنمية المستدامة، وغايتها، والقائم بها وعليها. فما هي إذن مواصفات الإنسان الجدير بتحقيق هذه التنمية انطلاقًا من السنة النبوية الشريفة؟ وما التوجيهات النبوية الشريفة لبناء الإنسان المؤهل للاضطلاع بهذه المسؤولية العظمى؟.

المبحث الثاني: أضواء على خصائص الإنسان الجدير بتحقيق التنمية المستدامة

تبين من خلال المبحث الأول أن مسؤولية الاستخلاف التي أناطها الله تعالى بالإنسان جاءت مقرونة بإعمار الأرض، باعتبارها المجال الطبيعي لقيام الحياة البشرية. وبالتالي فهي محل اختبار مدى قدرة الإنسان على النجاح في مهمة الاستخلاف في تدبير علاقته بخالق الكون ﷻ من جهة، وتدبير علاقته بالأرض ومكوناتها البشرية والطبيعية وتحقيق التنمية المستدامة من جهة أخرى. في هذا الإطار، رسمت السنة النبوية الشريفة معالم الشخصية البشرية الجديرة بتحمل مسؤولية التنمية المستدامة في الأرض. وسنحاول إبراز ذلك من خلال التركيز على أهمية العلاقة الجدلية بين جملة من المفاهيم المهيكلة لتلك الخصائص والتنمية المستدامة. ومن أهمها ما يلي:

المطلب الأول: جدلية الإيمان والتنمية المستدامة:

لعل أول خاصية يجدر التأكيد عليها في سياق الحديث عن التنمية المستدامة من منظور ديني عام وإسلامي خاص، هي خاصية الإيمان. فما علاقة الإيمان بالتنمية؟ وكيف يمكن تأطير العلاقة بين الإيمان والتنمية المستدامة على ضوء الحديث الشريف؟ في محاولة للإجابة عن هكذا تساؤلات، ينبغي التأكيد على الخصوصية الحضارية لمفهوم التنمية من منظور إسلامي. ذلك أن التنمية في الإسلام ليست مجرد إشباع لحاجات مادية للإنسان وتحقيق مؤشرات اجتماعية واقتصادية؛ بل هي في جوهرها تجسيد لمفهوم الاستخلاف الذي شرَّف الله به الإنسان في الأرض عن سائر المخلوقات. ولذلك، ترتبط التنمية بعلاقة جدلية بالإيمان في المنظور الإسلامي. وقد أكد الحق ﷻ على تلك العلاقة في القرآن الكريم، من خلال جعل الإيمان شرطًا للإنعام على الإنسان بجملة من النعم. وجاء ذلك بصيغة المفرد المحدد للنعمة المقصودة، وأحيانًا بصيغة الجمع دلالة على النعم كلها. ومن ذلك قوله تعالى بشأن نعمة الأمن: ﴿ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَلَمۡ يَلۡبِسُوٓاْ إِيمَٰنَهُم بِظُلۡمٍ أُوْلَٰٓئِكَ لَهُمُ ٱلۡأَمۡنُ وَهُم مُّهۡتَدُونَ﴾ الأَنعَام: 82، ومن ذلك قوله تعالى بشأن نعمة الحياة الطيبة: ﴿مَنۡ عَمِلَ صَٰلِحٗا مِّن ذَكَرٍ أَوۡ أُنثَىٰ وَهُوَ مُؤۡمِنٞ فَلَنُحۡيِيَنَّهُۥ حَيَوٰةٗ طَيِّبَةٗۖ وَلَنَجۡزِيَنَّهُمۡ أَجۡرَهُم بِأَحۡسَنِ مَا كَانُواْ يَعۡمَلُونَ﴾ النَّحل: 97. ومن النعم التي خصها الله تعالى بشرط الإيمان أيضًا، نعمة الخير والبركة في الرزق من السماء والأرض، وهي دلالة على شرط الإيمان للنماء والرخاء والازدهار، أو ما يمكن التعبير عنه بالازدهار التنموي، فقال سبحانه: ﴿وَلَوۡ أَنَّ أَهۡلَ ٱلۡقُرَىٰٓ ءَامَنُواْ

وَٱتَّقَوۡاْ لَفَتَحۡنَا عَلَيۡهِم بَرَكَٰتٖ مِّنَ ٱلسَّمَآءِ وَٱلۡأَرۡضِ وَلَٰكِن كَذَّبُواْ فَأَخَذۡنَٰهُم بِمَا كَانُواْ يَكۡسِبُونَ ﴾ الأعراف: 96. والإيمان من منظور القرآن الكريم ملازم للعمل الصالح الذي ينفع صاحبه في الدنيا والآخرة. قال تعالى: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ سَيَجۡعَلُ لَهُمُ ٱلرَّحۡمَٰنُ وُدّٗا ﴾ مَريَم: 96. وقال سبحانه: ﴿وَمَن يَعۡمَلۡ مِنَ ٱلصَّٰلِحَٰتِ وَهُوَ مُؤۡمِنٞ فَلَا يَخَافُ ظُلۡمٗا وَلَا هَضۡمٗا ﴾ طه: 112. وقال (عز وجل): ﴿ وَمَن يَأۡتِهِۦ مُؤۡمِنٗا قَدۡ عَمِلَ ٱلصَّٰلِحَٰتِ فَأُوْلَٰٓئِكَ لَهُمُ ٱلدَّرَجَٰتُ ٱلۡعُلَىٰ ﴾ طه: 75. وفي المقابل، يترتب عن الكفر بالله زوال النعم المادية والمعنوية في الدنيا، فضلا عن سوء المآل الأخروي. فقال تعالى: ﴿ وَضَرَبَ ٱللَّهُ مَثَلٗا قَرۡيَةٗ كَانَتۡ ءَامِنَةٗ مُّطۡمَئِنَّةٗ يَأۡتِيهَا رِزۡقُهَا رَغَدٗا مِّن كُلِّ مَكَانٖ فَكَفَرَتۡ بِأَنۡعُمِ ٱللَّهِ فَأَذَٰقَهَا ٱللَّهُ لِبَاسَ ٱلۡجُوعِ وَٱلۡخَوۡفِ بِمَا كَانُواْ يَصۡنَعُونَ ﴾ النَّحل: 112. وهكذا، يجعل الله ﷻ الإيمان سبيلا للنماء والتنمية الإنسانية بمختلف أبعادها المادية والروحية والمعنوية، فهو السبيل للحياة الطيبة والأمن الروحي والمادي والرخاء الاقتصادي، وهو سبيل كسب ونماء الخيرات والبركات والأرزاق من السماء والأرض...

وبينت السنة النبوية الشريفة العلاقة الجدلية بين الإيمان والتنمية تنظيرًا وتطبيقًا. فقال رسول الله ﷺ معرِّفا الإيمان ومبينًا أوجه علاقته النظرية والعملية بالتنمية: «الْإِيمَانُ بِضْعٌ وَسَبْعُونَ أَوْ بِضْعٌ وَسِتُّونَ شُعْبَةً، فَأَفْضَلُهَا قَوْلُ لَا إِلَهَ إِلَّا اللهُ، وَأَدْنَاهَا إِمَاطَةُ الْأَذَى عَنِ الطَّرِيقِ، وَالْحَيَاءُ شُعْبَةٌ مِنَ الْإِيمَانِ»[1]. فهذا الحديث الشريف وحده كافٍ للتأكيد على العلاقة النظرية والعملية بين الإيمان والتنمية، إذ يؤكد أن الإيمان يمتد عموديًا وأفقيًا، من الإقرار بالألوهية والوحدانية لله ﷻ، إلى إماطة الأذى عن الطريق. وبين أعلى قمة الهرم الإيماني وقاعدته، تندرج مختلف الأفعال والتصرفات والأفكار والأقوال التي تسهم في بناء منظومة التنمية بصفة عامة والتنمية المستدامة بمختلف أبعادها الروحية والمادية بصفة خاصة. فالإيمان الكامل كما يخبر النبي ﷺ في الحديث الشريف أعلاه درجات، ويشتمل على أعمال وأفعال وأصناف من الصالحات، يصل عددها إلى بضعٍ وسبعين -أو بضعٍ وستّين- جزءًا، وكلها بانية للتنمية المستدامة وخادمة لها، بشكل مباشر أو غير مباشر. فالإيمان ذو خصال متعددة، ويشتمل على أعمال كثيرة، منها أعمال القلوب، ومنها أعمالُ اللِّسانِ، ومنها أعمالُ الجوارحِ. أعلاها درجة الإيمان بالله وإقرار التوحيد والعبودية له وحده ﷻ، والاعتراف بكونه الإله الواحد المدبر للكون المستحِق للعبادة وحده دون ما سواه، والعمل بمقتضى ذلك الإيمان. وقد بيّنا من خلال الأدلة القرآنية كيف أن الإيمان يعتبر

1- أخرجه مسلم في صحيحه، كتاب الإيمان، باب شعب الإيمان (1/ 46) حديث رقم (35).

مفتاح التنمية والنماء الدائمين. وأقل أعمال الإيمان حسب الحديث الشريف تنحية الأذى وإبعاده عن الطريق، والمراد بالأذى كل ما يؤذي الناس، من حجر، أو شوك، أو نفايات، أو تلوث، أو غيره... وهو ما يختزل إشارة نبوية حضارية عميقة إلى أن إماطة الأذى-أيًّا كان- عن الإنسان يعتبر سبيلاً لتجسيد معنى الإيمان. وهو سلوك حضاري وأخلاقي وتنموي بامتياز، تتبين أهميته بتزايد خطورة الأذى وما يلحقه من أضرار بالإنسان والبيئة والتنمية. ومن الأمثلة الواقعية المعبرة عن أهمية ذلك الفعل وعلاقته الوطيدة بالتنمية المستدامة، إزالة النفايات المسببة للتلوث البيئي من تلوث التربة والهواء والماء عن التجمعات السكانية كالمدن وغيرها؛ والتقليل من استخدام المواد الملوثة بكثرة في الصناعة ووسائل النقل وغيرها المهددة للصحة العامة للناس...

وأخبر النبي ﷺ في الحديث الشريف أيضًا أن الحياء درجةٌ وعمل وخصلةٌ من خصال الإيمان. وحقيقةُ الحياءِ خلق يبعث على تركِ القَبيحِ، ويمنع من التقصيرِ في حق اللهِ تَعالَى. فهو بهذا المعنى أقوى باعثٍ على فعل الخيرِ، وأعظم رادعٍ عنِ فعل الشر. وخصّه بالذكرِ لكونه أمرًا خلُقيًّا ربّما يذهل العَقل عَن كَونِه من الإيمانِ؛ فدلَّ على أن الأخلاق الحسنةَ أيضًا من أعمالِ الإيمانِ ودرجاتِهِ. فجمع هذا الحديث الشريف بين الاعتِقادِ والعَمَلِ والأخلاقِ، وأنها كلها مُكمِّلاتٌ للإيمانِ. ونعتقد أنها تشكل أسسًا قوية للتنمية المستدامة في المجتمع المسلم، بل إنَّ أثرها يتعدى المجتمعات الإسلامية، ليشمل الإنسانية ككل. فعلى ضوء قراءة نسقية تكاملية لمكونات الحديث الشريف، فإن كل درجات وشعب وخصال الإيمان تسهم في بناء سليم لمنظومة التنمية بأبعادها المختلفة الروحية والاجتماعية، والبيئية، والأخلاقية، وغيرها. وتأكيدًا على أهمية العلاقة بين الإيمان والعمل الصالح في المفاضلة بين الناس، يقول النبي ﷺ في حديث آخر: «إِنَّ اللَّهَ لَا يَنْظُرُ إِلَى صُوَرِكُمْ وَأَمْوَالِكُمْ، وَلَكِنْ يَنْظُرُ إِلَى قُلُوبِكُمْ، وَأَعْمَالِكُمْ»[1]. فما يتفجر من القلوب من التقوى والإيمان والصدق والإخلاص، وما تترجمه الجوارح من الأعمال الصالحة هو معيار المفاضلة بين الناس، وليس مظاهرهم الجسدية وممتلكاتهم المادية. فالجمع بين الإيمان والعمل الصالح من شروط نجاح الشخصية المسلمة في الدنيا والدين. وبذلك، تتكامل الأدلة القرآنية والحديثية لتجعل من الإيمان شرطًا لقيام التنمية في المنظور الإسلامي.

1- أخرجه مسلم في صحيحه، كتاب البر والصلة والآداب، باب تحريم ظلم المسلم وخذله واحتقاره (8/11) حديث رقم (2564).

المطلب الثاني: جدلية الصلاح والإصلاح والتنمية المستدامة:

في إطار العلاقة بين الإيمان والتنمية من المنظور الإسلامي، تندرج خاصية أخرى من خصائص الإنسان الجدير بتحقيق التنمية المستدامة، ألا وهي خاصية الصلاح والإصلاح وعدم الفساد في الأرض. فالصلاح والإصلاح منهج الأنبياء والمرسلين والمؤمنين في الأرض، وطريق الفلاح في الدنيا والآخرة، والنجاة من الهلاك والدمار، وتحقيق وراثة الأرض. وهو رسالة شاملة لكل مجالات الحياة. فالعمل الصالح سبيل للحياة الطيبة والأمن والأمان. فقال تعالى: ﴿ مَنْ عَمِلَ صَٰلِحًا مِّن ذَكَرٍ أَوْ أُنثَىٰ وَهُوَ مُؤْمِنٌ فَلَنُحْيِيَنَّهُۥ حَيَوٰةً طَيِّبَةً وَلَنَجْزِيَنَّهُمْ أَجْرَهُم بِأَحْسَنِ مَا كَانُوا۟ يَعْمَلُونَ ﴾ النَّحل: 97. وقال (عز وجل): ﴿ وَمَا كَانَ رَبُّكَ لِيُهْلِكَ ٱلْقُرَىٰ بِظُلْمٍ وَأَهْلُهَا مُصْلِحُونَ ﴾ هُود: 117. وجعل الحق ﷻ التمكين في الأرض واستحقاق وراثة الأرض من نصيب العباد الصالحين، فقال: ﴿ وَلَقَدْ كَتَبْنَا فِى ٱلزَّبُورِ مِنۢ بَعْدِ ٱلذِّكْرِ أَنَّ ٱلْأَرْضَ يَرِثُهَا عِبَادِىَ ٱلصَّٰلِحُونَ ﴾ الأَنبِيَاء: 105.

وفي مقابل الثناء على مبدأ الصلاح والإصلاح والدعوة إلى تبنيهما منهجا في الحياة تجسيدًا لمقتضيات الإيمان بالله ﷻ، والفوز في الدنيا برسالة إعمار الأرض، ونيل مرضاة الله في الآخرة؛ تعددت الشواهد القرآنية لتحريم والنهي عن الفساد في الأرض مبدأ ومنهجًا، قولاً وفعلاً، باعتباره مسلكًا لا يؤدي إلا إلى تخريب وتدمير العمران البشري، أي القضاء على التنمية؛ وإلى سخط الله والهلاك في الآخرة. إذ لا نماء ولا تنمية مع الفساد والإفساد. فعبر الله تعالى عن سخطه وكرهه للفساد والمفسدين، ودعا عباده إلى عدم الفساد في الأرض، فقال (عز وجل): ﴿ وَلَا تَبْغِ ٱلْفَسَادَ فِى ٱلْأَرْضِ ۖ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يُحِبُّ ٱلْمُفْسِدِينَ ﴾ القَصَص: 77. فالفساد مهلك للإنسان وللتنمية، قال (عز وجل): ﴿ وَإِذَا تَوَلَّىٰ سَعَىٰ فِى ٱلْأَرْضِ لِيُفْسِدَ فِيهَا وَيُهْلِكَ ٱلْحَرْثَ وَٱلنَّسْلَ ۗ وَٱللَّهُ لَا يُحِبُّ ٱلْفَسَادَ ﴾ البَقَرَة: 205. وقال سبحانه: ﴿ وَلَا تُفْسِدُوا۟ فِى ٱلْأَرْضِ بَعْدَ إِصْلَٰحِهَا وَٱدْعُوهُ خَوْفًا وَطَمَعًا ۚ إِنَّ رَحْمَتَ ٱللَّهِ قَرِيبٌ مِّنَ ٱلْمُحْسِنِينَ ﴾ الأَعرَاف: 56. وقال (عز وجل): ﴿ وَلَا تَعْثَوْا۟ فِى ٱلْأَرْضِ مُفْسِدِينَ ﴾ الشُّعَرَاء: 183. وجعل الحق سبحانه جزاء الفساد في الأرض متعديًا إلى الحياة الآخرة، فقال سبحانه: ﴿ تِلْكَ ٱلدَّارُ ٱلْـَٔاخِرَةُ نَجْعَلُهَا لِلَّذِينَ لَا يُرِيدُونَ عُلُوًّا فِى ٱلْأَرْضِ وَلَا فَسَادًا ۚ وَٱلْعَٰقِبَةُ لِلْمُتَّقِينَ ﴾ القَصَص: 83. وفي تصوير قرآني بليغ عن العلاقة الجدلية بين عمل الإنسان وانتشار الفساد وتدهور التنمية المستدامة، يقول سبحانه: ﴿ ظَهَرَ ٱلْفَسَادُ فِى ٱلْبَرِّ وَٱلْبَحْرِ بِمَا كَسَبَتْ أَيْدِى ٱلنَّاسِ لِيُذِيقَهُم بَعْضَ ٱلَّذِى عَمِلُوا۟ لَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ ﴾ الرُّوم: 41.

هذا، وقد بيّنت السنة النبوية موقف الإسلام الداعي إلى الصلاح والإصلاح وعدم الفساد

في الأرض. فحذر النبي ﷺ في عدد من الأحاديث الشريفة من جملة من الممارسات المدمرة للأخلاق وللتنمية. ذلك أن التخلي عن الأخلاق القويمة والسقوط في هاوية المعاصي يخلف آثارًا سلبية على حياة الإنسان وعلى التنمية الاقتصادية والاجتماعية ومستقبلها. قال ﷺ:»يَا مَعْشَرَ الْمُهَاجِرِينَ، خِصَالٌ خَمْسٌ إِنِ ابْتُلِيتُمْ بِهِنَّ وَنَزَلْنَ بِكُمْ، وَأَعُوذُ بِاللهِ أَنْ تُدْرِكُوهُنَّ: لَمْ تَظْهَرِ الْفَاحِشَةُ فِي قَوْمٍ قَطُّ حَتَّى يُعْلِنُوا بِهَا إِلَّا ظَهَرَ فِيهِمُ الطَّاعُونُ وَالْأَوْجَاعُ الَّتِي لَمْ تَكُنْ مَضَتْ فِي أَسْلَافِهِمُ الَّذِينَ مَضَوْا، وَلَنْ يَنْقُصُوا الْمِكْيَالَ وَالْمِيزَانَ إِلَّا أُخِذُوا بِالسِّنِينَ، وَشِدَّةِ الْمُؤْنَةِ، وَجَوْرِ السُّلْطَانِ عَلَيْهِمْ، وَلَمْ يَمْنَعُوا زَكَاةَ أَمْوَالِهِمْ إِلَّا مُنِعُوا الْقَطْرَ مِنَ السَّمَاءِ، وَلَوْلَا الْبَهَائِمُ لَمْ يُمْطَرُوا، وَلَنْ يَنْقُضُوا عَهْدَ اللهِ وَرَسُولِهِ إِلَّا سَلَّطَ اللهُ عَلَيْهِمْ عَدُوَّهُمْ، ثُمَّ غَزَوْهُمْ وَأَخَذُوا بَعْضَ مَا كَانَ فِي أَيْدِيهِمْ، وَمَا لَمْ يَحْكُمُوا بِكِتَابِ اللهِ إِلَّا جَعَلَ اللهُ بَأْسَهُمْ بَيْنَهُمْ»[1].

من خلال قراءة متأنية للحَديثِ الشريف على ضوء تحديات التنمية المستدامة، يظهر لنا أن النَّبيّ ﷺ وهو يحذر جماعة المهاجرين ومن خلالهم كل المسلمين من الابتلاء بخمسة مناكر موجبة لغضب الله ﷻ وسخطه، فهو يحذر من خمسة موانع للتنمية الاجتماعية والاقتصادية. تتمثل الأُولى في استفحال الفاحشة في المجتمع وعقابه انتشار الطاعون. وبالتالي فالتحذير النبوي من الابتلاء بمنكر الزنا وفشوّه في المجتمع، يقصد من بين ما يقصد إليه من مقاصد شرعية حماية النسل والعقل في المجتمع المسلم، وهما شرطان بيولوجيان أساسيان لبناء إنسان سليم قوي وقادر على النهوض بأعباء التنمية وتحقيق الإنتاج.

وتتمثل الثانية في نقص المِكيال والميزان، وهو سَرِقةُ ما يُكالُ ويُوزَنُ عندَ البيعِ والشِّراءِ، وعقابه الإصابة بالقَحْطِ، والجَفافِ، وعَدَمِ نُزولِ المَطَرِ، وقِلَّةِ الماء، «وشِدَّةِ المؤنة»، أي الغَلاءِ وقِلَّةِ الزادِ والقوتِ، «وجَورِ السُّلطانِ»، أي انتشار ظُلمِ الوُلاةِ لهم. ويبدو من خلال التحذير النبوي من المنكر الثاني الذي هو الغش في الممارسة التجارية بين الناس، علاقته المباشرة بالتنمية الاقتصادية المستدامة. إذ يقدم تفسيرًا واضحًا لأخطر الاختلالات الطبيعية والسياسية التي تهدد التنمية المستدامة، وهو احتباس المطر والجفاف وندرة الماء، وانتشار الجور والظلم. وهو ما يترتب عنه قلة الإنتاج من الأقوات والأطعمة وانتشار الغلاء وتهديد الأمن الغذائي والروحي والسياسي في المجتمع. ومعلوم أن عقاب الله تعالى للممارسين لهذا النوع من الغش لا ينحصر في الدنيا، بل يتوعدهم ﷻ بالويل في الآخرة،

1- أخرجه الطبراني في الأوسط، دار الحرمين، القاهرة، ط1، 1415هـ، 1995م، باب العين، من اسمه عبد الرحمن، عبد الرحمن بن عمرو الدمشقي (5/61) حديث رقم (4671).

حين قال ﷻ: ﴿وَيۡلٞ لِّلۡمُطَفِّفِينَ ١ ٱلَّذِينَ إِذَا ٱكۡتَالُواْ عَلَى ٱلنَّاسِ يَسۡتَوۡفُونَ ٢ وَإِذَا كَالُوهُمۡ أَو وَّزَنُوهُمۡ يُخۡسِرُونَ ٣ أَلَا يَظُنُّ أُوْلَٰٓئِكَ أَنَّهُم مَّبۡعُوثُونَ﴾ المُطَفِّفِين: 1 - 4. ففي المنظور الإسلامي، هناك علاقة جدلية بين سلوك جماعة المسلمين ووضعيتها التنموية، في حالة الرخاء أو في حالة الشدة. ويشمل المعنى نفسه الحالة الثالثة، المتعلقة بمنكر منع الزكاة الذي يعد سببًا مباشرًا لمنع المطر، وبالتالي سببًا للجفاف وما يترتب عنه من انعكاسات سلبية على الأمن الغذائي والاقتصادي بشكل عام.

وبدوره يعد التحذير النبوي من منكر نقض عهود الله ورسوله تنبيهًا نبويًّا شريفا إلى أحد أخطر الموانع الخارجية للتنمية، وهو تسلط الأعداء الخارجيين وما يترتب عنه من سلب للأموال والممتلكات والبلدان. فقال ﷺ في الرابِعَةِ: «ولم يَنقُضوا عهدَ اللهِ وعهدَ رسولِه»، أي إذا أخَلُّوا بالعُهودِ والمَواثيقِ التي أخَذَها اللهُ ورسولُه عليهم من الوَفاءِ لكُلِّ ذي عهدٍ وميثاقٍ، «إلَّا سلَّط اللهُ عليهم عَدُوَّهم من غيرِهم»، أي استَولَوْا على بعضِ ما عندَهم من الأموالِ، والمُمتلَكاتِ، والبُلدانِ. وختم النبي ﷺ بالتحذير من منكر تعطيل العمل بشرع الله في المجتمع المسلم. وهو من أخطر مسببات الفتنة الداخلية التي لا تمنع فقط المجتمع من تحقيق التنمية المستدامة، بل تقضي على أسس التنمية ومقوماتها الاجتماعية والسياسية والاقتصادية، حيث قال ﷺ في الخامِسَةِ: «وما لم تَحكُمْ أئِمَّتُهم بكتابِ اللهِ ﷻ ويتخَيَّروا فيما أنزَلَ اللهُ»، أي إذا امتنَعَ الأئِمَّةُ عن الحُكمِ بما جاءَ في كِتابِ اللهِ كُلِّيةً، أو اختاروا بعضَ ما فيه مما لهم فيه مَصلحةٌ، فطبَّقوه وأمَروا به، وامتَنَعوا وعطَّلوا بقيَّةَ أحكامِه، فكانوا كمَن يُؤمِنون ببعضِ الكِتابِ ويَترُكون بعضَه، «إلَّا جَعَلَ اللهُ بأسَهم بينهم»، أي جَعَلَ اللهُ بعضَهم أعداء لبعض، وحَلَّتْ عليهم عقوبة رب العالمين.

وهكذا، يشخِّص الحديث النبوي الشريف أخطر الموانع الداخلية والخارجية للتنمية في المجتمع المسلم. فهذه المناكر الخمسة التي حذّر منها النبي ﷺ تعتبر بمنطوق الحديث الشريف من موانع ومهددات التنمية الاقتصادية والاجتماعية في الحاضر وفي المستقبل، فضلا عن العقوبات الأخروية المترتبة عنها. ولذلك، فهو دعوة إلى تجنبها تحقيقا للتنمية المستدامة بأبعادها المادية والمعنوية، ومنها الأمن والرخاء والازدهار الاقتصادي والتماسك الاجتماعي ومواجهة الأخطار الخارجية.

المطلب الثالث: جدلية الأخلاق والتنمية المستدامة:

إذا كان من المسلّم به أنَّ الإسلام دين الأخلاق، فمن الواجب أيضًا التسليم بأنَّ الإسلام دين التنمية؛ حيث يتميز الإسلام بجملة من الخصائص أهمها الكمال والشمول، مصداقا لقوله تعالى: ﴿ٱلْيَوْمَ أَكْمَلْتُ لَكُمْ دِينَكُمْ وَأَتْمَمْتُ عَلَيْكُمْ نِعْمَتِي وَرَضِيتُ لَكُمُ ٱلْإِسْلَٰمَ دِينًا﴾ المَائِدَة: 3، ويتميز أيضًا بالتوازن، والتكامل، والاعتدال، والوسطية. وفق هذا الإطار، يتميز المنظور الإسلامي للأخلاق والتنمية بالتكاملية والشمولية لشؤون الدين والدنيا، فهو منظور يبتغي تحقيق الحياة الطيبة في الدنيا بتحقيق التنمية والرخاء والازدهار الاقتصادي والاجتماعي، وتحقيق مرضاة الله تعالى الموجبة للفوز في الحياة الآخرة. ولذلك، حضَّ القرآن الكريم في آيات كثيرة على وجوب التحلي بالأخلاق الحسنة، منها قوله (عز وجل): ﴿إِنَّ ٱللَّهَ يَأْمُرُ بِٱلْعَدْلِ وَٱلْإِحْسَٰنِ وَإِيتَآيِٕ ذِى ٱلْقُرْبَىٰ وَيَنْهَىٰ عَنِ ٱلْفَحْشَآءِ وَٱلْمُنكَرِ وَٱلْبَغْىِ ۚ يَعِظُكُمْ لَعَلَّكُمْ تَذَكَّرُونَ﴾ النَّحل: [1]90. وعبرت آيات أخرى عن حب الله تعالى للمؤمنين الذين يتحلون بالأخلاق الحسنة، فقال سبحانه: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ يُحِبُّ ٱلْمُحْسِنِينَ﴾ البَقَرَة: 195، ﴿إِنَّ ٱللَّهَ يُحِبُّ ٱلْمُقْسِطِينَ﴾ المَائِدَة: 42...

وتزيد السنة النبوية الشريفة في بيان أهمية الأخلاق في الحياة. فقال ﷺ: «مَا مِنْ شَيْءٍ أَثْقَلُ فِي الْمِيزَانِ مِنْ حُسْنِ الْخُلُقِ»[2]. وقال أيضًا: «أَكْمَلُ الْمُؤْمِنِينَ إِيمَانًا أَحْسَنُهُمْ خُلُقًا»[3]. وتتعدد الأدلة القرآنية والحديثية عن الأخلاق وأهميتها القصوى في الإسلام. ويهمنا أساسًا في هذا السياق إبراز علاقة الأخلاق بالتنمية. وهي علاقة تتأسس -بدون شك- على الأثر العظيم الذي تحدثه التقوى في القلوب وتعكسها الجوارح عبر التحلي بالأخلاق الحميدة. فالتقوى باعتبارها محددًا باطنيًّا للأفعال توجه صاحبها نحو التحلي بالأخلاق

1- ونبه القرآن الكريم إلى جملة من المفاسد الأخلاقية في آيات كثيرة منها قوله تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ لَا يَسْخَرْ قَوْمٌ مِّن قَوْمٍ عَسَىٰٓ أَن يَكُونُوا۟ خَيْرًا مِّنْهُمْ وَلَا نِسَآءٌ مِّن نِّسَآءٍ عَسَىٰٓ أَن يَكُنَّ خَيْرًا مِّنْهُنَّ ۖ وَلَا تَلْمِزُوٓا۟ أَنفُسَكُمْ وَلَا تَنَابَزُوا۟ بِٱلْأَلْقَٰبِ ۖ بِئْسَ ٱلِٱسْمُ ٱلْفُسُوقُ بَعْدَ ٱلْإِيمَٰنِ ۚ وَمَن لَّمْ يَتُبْ فَأُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلظَّٰلِمُونَ ﴿١١﴾ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ ٱجْتَنِبُوا۟ كَثِيرًا مِّنَ ٱلظَّنِّ إِنَّ بَعْضَ ٱلظَّنِّ إِثْمٌ ۖ وَلَا تَجَسَّسُوا۟ وَلَا يَغْتَب بَّعْضُكُم بَعْضًا ۚ أَيُحِبُّ أَحَدُكُمْ أَن يَأْكُلَ لَحْمَ أَخِيهِ مَيْتًا فَكَرِهْتُمُوهُ ۚ وَٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ تَوَّابٌ رَّحِيمٌ﴾ الحُجُرَات: 11، 12.

2- أخرجه أبو داود في سننه، المكتبة العصرية، صيدا، بيروت، كتاب الأدب، باب في حسن الخلق (4/400) حديث رقم (4799).

3- أخرجه ابن حبان في صحيحه، مؤسسة الرسالة، بيروت، لبنان، ط2، 1414هـ، 1993م، كتاب البر والإحسان، باب حسن الخلق، ذكر البيان بأن من أكمل المؤمنين إيمانا من كان أحسن خلقا (2/227) حديث رقم (479).

الفاضلة، وتشعره بالمسؤولية المنوطة به في الأرض، مما يجعله مؤهلاً لدمج الثوابت الدينية والأخلاقية مع المعارف الدنيوية في بناء الأنساق التنموية الناجحة. وبذلك، تتأسس الخطط والبرامج والنماذج التنموية على أسس أخلاقية، وتتحرك الدوافع المادية للتنمية في إطار شرعي وأخلاقي. وانطلاقا من هكذا منظور أخلاقي، تصبح التنمية سياسة حكيمة لجلب المنافع والمصالح ودفع المفاسد والأضرار على تقوى من الله ﷻ. ومكارم الأخلاق هي التي تصنع من المؤمن ذلك الإنسان الجديد بتحقيق التنمية المستدامة المنضبطة بضوابط شرع الله تعالى، في التعامل مع الله ومع الإنسان ومع المحيط البيئي والاقتصادي، لضمان استدامة النماء والتقدم الذي يعود بالنفع على الإنسانية وضمان استمرارية الحياة بشكل طبيعي ومتوازن فوق سطح الأرض، دون تجاوز لحدود شرع الله تعالى.

فمن مكارم الأخلاق الحفاظ على البيئة بمائها وتربتها وهوائها ونباتها، وتبني السياسات الرشيدة في الحفاظ عليها باعتبارها المجال الطبيعي لعيش الإنسان وتحقيق رسالته الاستخلافية والعمرانية. ومنها كذلك أيضًا ترشيد استخدام الثروات الطبيعية السطحية والباطنية التي تزخر بها الأرض، وتجود بها السماء على الإنسان. جاء القرآن الكريم زاخرًا بالآيات التي تعرف بأهمية الماء في مختلف مظاهره من الأمطار والبحار والانهار...، مبينة أهميته باعتباره منبع الحياة في المنظومة البيئية؛ وموجهة للإنسان للانتفاع به، وتحسيسه بالمسؤولية عن حسن استعماله والمحافظة عليه دون إسراف أو تبذير[1]، فقال تعالى: ﴿يَٰبَنِيٓ ءَادَمَ خُذُواْ زِينَتَكُمۡ عِندَ كُلِّ مَسۡجِدٖ وَكُلُواْ وَٱشۡرَبُواْ وَلَا تُسۡرِفُوٓاْ إِنَّهُۥ لَا يُحِبُّ ٱلۡمُسۡرِفِينَ﴾ الأعراف: 31. وعززت السنة النبوية التوجيهات القرآنية، بالدعوة إلى الحفاظ على الماء والاقتصاد في استعماله وعدم تبذيره، والحفاظ على نقاء وصفاء طبيعته. روي عَنْ عَبْدِ اللَّهِ بْنِ عَمْرٍو، أَنَّ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ مَرَّ بِسَعْدٍ، وَهُوَ يَتَوَضَّأُ، فَقَالَ: مَا هَذَا السَّرَفُ؟ فَقَالَ: أَفِي الْوُضُوءِ إِسْرَافٌ؟ قَالَ: نَعَمْ، وَإِنْ كُنْتَ عَلَى نَهَرٍ جَارٍ»[2]. وروي عَنْ أَنَسٍ قَالَ: «كَانَ النَّبِيُّ ﷺ يَتَوَضَّأُ بِالْمُدِّ، وَيَغْتَسِلُ بِالصَّاعِ إِلَى خَمْسَةِ أَمْدَادٍ»[3]. ولما كانت أمنًا عائشة (رضي الله عنها) حريصة على نشر

1- محمد بن أحمد الأمراني، «كيف أمر الإسلام بالمحافظة على الثروة المائية» مجلة دعوة الحق، عدد: 299، 1993م، (ص104) وما بعدها.

2- أخرجه ابن ماجه في سننه، دار الرسالة العالمية، ط1، 1430هـ، 2009م، أبواب الطهارة وسننها، باب ما جاء في القصد في الوضوء وكراهة التعدي فيه (1/272) حديث رقم (425) وأحمد في مسنده، مسند عبد الله بن عمرو بن العاص (رضي الله عنه) (3/1489) حديث رقم (7186).

3- أخرجه مسلم في صحيحه، كتاب الحيض، باب القدر المستحب من الماء في غسل الجنابة وغسل الرجل والمرأة في إناء واحد (1/177) حديث رقم (325).

السنة النبوية، فقد أسهمت في التعريف بالهدي النبوي في الاقتصاد في الماء، وهي تسأل عن موضوع الغسل من الجنابة من طرف الرجال. قَالَتْ: «كَانَ رَسُولُ اللهِ ﷺ يغْتَسِلُ فِي الْقَدَحِ وَهُوَ الْفَرَقُ وَكُنْتُ أَغْتَسِلُ أَنَا وَهُوَ فِي الْإِنَاءِ الْوَاحِدِ (...) قَالَ سُفْيَانُ: وَالْفَرَقُ ثَلَاثَةُ آصُعٍ»[1]. وهكذا، حرص ﷺ ومعه الصحابة الكرام، على تربية الأمة على أخلاق الاقتصاد في استعمال الماء في أهم العبادات وهي الصلاة، مما يفيد بوجوب الحفاظ عليه من التبذير في كل شؤون الحياة الدنيوية والأخروية. وفي ذلك درس عظيم الأهمية في التنمية المستدامة بالحفاظ على الثروة المائية. كما دعت السنة النبوية إلى الحفاظ على الماء من التلوث. فنهى رسول الله ﷺ عن تلويث المياه بقضاء الحاجة من بول أو براز في الماء الذي يستعمله الناس في وضوئهم واغتسالهم وسائر شؤونهم، وكذا في طريقهم، وفي ظلهم، وفي موارد مياههم كالسواقي والأنهار وقنوات المياه ومجاريها... قَالَ رَسُولُ اللهِ ﷺ: «اتَّقُوا الْمَلَاعِنَ الثَّلَاثَ: الْبَرَازَ فِي الْمَوَارِدِ، وَالظِّلِّ، وَقَارِعَةِ الطَّرِيقِ»[2]. وفي مسند الإمام أحمد: «اتَّقُوا الْمَلَاعِنَ الثَّلَاثَ، قِيلَ: مَا الْمَلَاعِنُ يَا رَسُولَ اللهِ؟ قَالَ: أَنْ يَقْعُدَ أَحَدُكُمْ فِي ظِلٍّ يُسْتَظَلُّ فِيهِ، أَوْ فِي طَرِيقٍ، أَوْ فِي نَقْعِ مَاءٍ»[3]. فالإسلام دين يراعي مصالح العباد ومنافعهم؛ لذا كان النبي الكريم ﷺ شديد الحرص على تربية صحابته الكرام ومن خلالهم كل المسلمين على الحفاظ على البيئة بمختلف عناصرها، ومن ذلك تجنب الملاعن الثلاث. وفي ذلك إشارة نبوية أخلاقية خادمة للتنمية المستدامة، ترمي إلى منع كل أسباب ووسائل التلوث التي تصيب الماء بسبب تصرفات الإنسان سواء الطبيعية البيولوجية أو غيرها مما اقتضته سياقات التطور العمراني والصناعي...

1- أخرجه مسلم في صحيحه، كتاب الحيض، باب القدر المستحب من الماء في غسل الجنابة وغسل الرجل والمرأة في إناء واحد (1/175) حديث رقم (319).
2- أخرجه ابن ماجه في سننه، أبواب الطهارة وسننها، باب النهي عن الخلاء على قارعة الطريق (1/218) حديث رقم (353).
3- أخرجه أحمد في مسنده، مسند عبد الله بن العباس بن عبد المطلب رضي الله عنه، حديث رقم (2741).

المطلب الرابع: جدلية العلم والتنمية المستدامة:

من المقومات الرئيسة لشخصية المؤمن لتحقيق التنمية المستدامة، العلم والتعليم. فإلى جانب الغذاء الروحي الإيماني والأخلاقي، لابد من العلم والتعليم لتكوين شخصية قادرة على الاستثمار السليم لما سخَّره الله تعالى له من مخلوقات في الأرض والسماء. فجاء الوحي من القرآن والسنة مؤكدًا على فضل العلم وأهميته في الحياة وعلى مكانة العلماء وفضلهم في الحياة الدنيا والآخرة، ورغّب في العلم والتعليم. قال تعالى: ﴿وَقُل رَّبِّ زِدْنِي عِلْمًا﴾ طه: 114. وبين مكانة أهل العلم، فقال (عز وجل): ﴿قُلْ هَلْ يَسْتَوِى ٱلَّذِينَ يَعْلَمُونَ وَٱلَّذِينَ لَا يَعْلَمُونَ إِنَّمَا يَتَذَكَّرُ أُوْلُواْ ٱلْأَلْبَٰبِ﴾ الزُّمَر: 9. وقال أيضًا: ﴿يَرْفَعِ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ مِنكُمْ وَٱلَّذِينَ أُوتُواْ ٱلْعِلْمَ دَرَجَٰتٍ وَٱللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيرٌ﴾ المُجَادلَة: 11.

وبيَّن النبي ﷺ فَضلَ طلب العلم، وحثّ عليه في أحاديث كثيرة، منها قوله ﷺ: «طَلَبُ الْعِلْمِ فَرِيضَةٌ عَلَى كُلِّ مُسْلِمٍ»[1]، وقوله: «مَنْ سَلَكَ طَرِيقًا يَلْتَمِسُ فِيهِ عِلْمًا سَهَّلَ اللَّهُ لَهُ طَرِيقًا إِلَى الْجَنَّةِ»[2]. وفي حديث أبي الدرداء مزيد من التفصيل في فضل العلم والعلماء، حيث قال: «فَإِنِّي سَمِعْتُ رَسُولَ اللهِ ﷺ يَقُولُ: مَنْ سَلَكَ طَرِيقًا يَطْلُبُ فِيهِ عِلْمًا، سَلَكَ اللَّهُ بِهِ طَرِيقًا مِنْ طُرُقِ الْجَنَّةِ، وَإِنَّ الْمَلَائِكَةَ لَتَضَعُ أَجْنِحَتَهَا رِضًا لِطَالِبِ الْعِلْمِ، وَإِنَّ الْعَالِمَ لَيَسْتَغْفِرُ لَهُ مَنْ فِي السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَالْحِيتَانُ فِي جَوْفِ الْمَاءِ، وَإِنَّ فَضْلَ الْعَالِمِ عَلَى الْعَابِدِ كَفَضْلِ الْقَمَرِ لَيْلَةَ الْبَدْرِ عَلَى سَائِرِ الْكَوَاكِبِ، وَإِنَّ الْعُلَمَاءَ وَرَثَةُ الْأَنْبِيَاءِ، وَإِنَّ الْأَنْبِيَاءَ لَمْ يُوَرِّثُوا دِينَارًا وَلَا دِرْهَمًا وَرَّثُوا الْعِلْمَ، فَمَنْ أَخَذَهُ أَخَذَ بِحَظٍّ وَافِرٍ»[3]. يقتضي العلم في التصور النبوي أن تتعدى منفعته إلى الناس، لكي ينتفعوا به في شؤونهم الدنيوية والأخروية. كما أن العلم من مقتضيات مسؤولية الاستخلاف التي أنيطت بالإنسان في الأرض، يسأل عنها يوم الحساب. قال ﷺ: «لَا تَزُولُ قَدَمَا عَبْدٍ يَوْمَ الْقِيَامَةِ حَتَّى يُسْأَلَ عَنْ عُمُرِهِ فِيمَ أَفْنَاهُ، وَعَنْ عِلْمِهِ فِيمَ فَعَلَ، وَعَنْ مَالِهِ مِنْ أَيْنَ اكْتَسَبَهُ وَفِيمَ أَنْفَقَهُ، وَعَنْ جِسْمِهِ فِيمَ أَبْلَاهُ»[4]. وبيَّن النبي المعلم أن رسالته قائمة على أساس الهدى والعلم، حيث قال ﷺ: «مَثَلُ مَا بَعَثَنِي

1- أخرجه ابن ماجه في سننه، أبواب السنة، باب فضل العلماء والحث على طلب العلم (1/151) حديث رقم (224).

2- أخرجه الترمذي في جامعه، دار الغرب الإسلامي، بيروت، لبنان، 1996، 1998م، أبواب العلم عن رسول الله ﷺ، باب فضل طلب العلم (4/385) حديث رقم (2646).

3- أخرجه أبو داود في سننه، كتاب العلم، باب في فضل العلم (3/354) حديث رقم (3641).

4- أخرجه الترمذي في جامعه، أبواب صفة القيامة والرقائق والورع عن رسول الله ﷺ، باب في القيامة، (4/217) حديث رقم (2417).

اللهُ بِهِ مِنَ الْهُدَى وَالْعِلْمِ كَمَثَلِ الْغَيْثِ الْكَثِيرِ أَصَابَ أَرْضًا، فَكَانَ مِنْهَا نَقِيَّةٌ، قَبِلَتِ الْمَاءَ، فَأَنْبَتَتِ الْكَلَأَ وَالْعُشْبَ الْكَثِيرَ، وَكَانَتْ مِنْهَا أَجَادِبُ، أَمْسَكَتِ الْمَاءَ، فَنَفَعَ اللهُ بِهَا النَّاسَ، فَشَرِبُوا وَسَقَوْا وَزَرَعُوا، وَأَصَابَتْ مِنْهَا طَائِفَةً أُخْرَى، إِنَّمَا هِيَ قِيعَانٌ، لَا تُمْسِكُ مَاءً، وَلَا تُنْبِتُ كَلًا، فَذَلِكَ مَثَلُ مَنْ فَقُهَ فِي دِينِ اللهِ، وَنَفَعَهُ مَا بَعَثَنِي اللهُ بِهِ، فَعَلِمَ وَعَلَّمَ، وَمَثَلُ مَنْ لَمْ يَرْفَعْ بِذَلِكَ رَأْسًا، وَلَمْ يَقْبَلْ هُدَى اللهِ الَّذِي أُرْسِلْتُ بِهِ»[1].

وكان النبي الكريم يستعيذ من العلم غير النافع، بقوله: «اللَّهُمَّ إِنِّي أَعُوذُ بِكَ مِنْ قَلْبٍ لَا يَخْشَعُ، وَمِنْ نَفْسٍ لَا تَشْبَعُ، وَعِلْمٍ لَا يَنْفَعُ، وَدَعْوَةٍ لَا يُسْتَجَابُ لَهَا»[2]. واعتبر الرسول الكريم أن العلم النافع من الأعمال المستدامة التي يستمر نفعها للإنسان بعد وفاته، فهو من الصدقة الجارية. قال ﷺ: «إِذَا مَاتَ الْإِنْسَانُ انْقَطَعَ عَنْهُ عَمَلُهُ إِلَّا مِنْ ثَلَاثَةٍ: إِلَّا مِنْ صَدَقَةٍ جَارِيَةٍ، أَوْ عِلْمٍ يُنْتَفَعُ بِهِ، أَوْ وَلَدٍ صَالِحٍ يَدْعُو لَهُ»[3]. وكان من دعاء رسول الله ﷺ الزيادة في العلم والانتفاع به. وفي ذلك إشارة نبوية إلى الجمع بين العلم والعمل لتحقيق المنافع للبشرية. فلا يكفي أن يبقى العلم مجردًا لا علاقة له بالواقع وبالمعيش اليومي للإنسان، أي بالتنمية عامة والتنمية المستدامة خاصة. فعن أبي هريرة رضي الله عنه قال: كان رسولُ الله ﷺ يقول: «اللَّهُمَّ انْفَعْنِي بِمَا عَلَّمْتَنِي وَعَلِّمْنِي مَا يَنْفَعُنِي وَزِدْنِي عِلْمًا الْحَمْدُ لِلهِ عَلَى كُلِّ حَالٍ، وَأَعُوذُ بِاللهِ مِنْ حَالِ أَهْلِ النَّارِ» [4]. ومن ذلك، دعوته إلى نشر العلم وعدم احتكاره. فقال ﷺ: «مَنْ سُئِلَ عَنْ عِلْمٍ عَلِمَهُ ثُمَّ كَتَمَهُ، أُلْجِمَ يَوْمَ الْقِيَامَةِ بِلِجَامٍ مِنْ نَارٍ»[5]. كما حذر النبي ﷺ من الرياء والتباهي بالعلم والخروج به عن مقصده الشرعي. حيث قال: «لَا تَعَلَّمُوا الْعِلْمَ لِتُبَاهُوا بِهِ الْعُلَمَاءَ، وَلَا تُمَارُوا بِهِ السُّفَهَاءَ، وَلَا تَخَيَّرُوا بِهِ الْمَجَالِسَ، فَمَنْ فَعَلَ ذَلِكَ فَالنَّارَ النَّارَ»[6].

1- أخرجه البخاري في صحيحه، كتاب العلم، باب فضل من علم وعلم (1/27) حديث رقم (79).

2- أخرجه النسائي في سننه، دار المعرفة للطباعة والنشر والتوزيع، بيروت، لبنان، ط1، 1428هـ، 2007م، كتاب الاستعاذة، باب الاستعاذة من العجز (1/1046) حديث رقم (5473/1).

3- أخرجه مسلم في صحيحه، كتاب الوصية، باب ما يلحق الإنسان من الثواب بعد وفاته (5/73) حديث رقم (1631).

4- أخرجه الترمذي في جامعه، أبواب الدعوات عن رسول الله (صلى الله عليه وسلم) (5/549) حديث رقم (3599).

5- أخرجه الترمذي في جامعه، أبواب العلم عن رسول الله ﷺ، باب ما جاء في كتمان العلم (4/387) حديث رقم (2649).

6- أخرجه ابن حبان في صحيحه، كتاب العلم، ذكر وصف العلم الذي يتوقع دخول النار في القيامة لمن طلبه (1/278) حديث رقم (77).

على ضوء هذه النماذج من الشواهد القرآنية والحديثية حول العلم والتعليم، يتبين أن مفهوم العلم في الإسلام شامل لكل العلوم الدينية والدنيوية، فهو منظومة متكاملة لخدمة الإنسان من مختلف الأبعاد الروحية والعقلية والنفسية والطبيعية وغيرها من أجل تأهيله علميًّا للاضطلاع بمسؤولية التنمية المستدامة في الأرض. ومن هذه العلوم نذكر علوم البيئة وعلوم البحار وعلوم الفضاء وعلوم الزراعة وعلوم الماء وعلوم الطب وغيرها من العلوم التجريبية والكونية؛ بالإضافة إلى علوم العقيدة والشريعة الإسلامية...فلكل من هذه العلوم والمعارف أهميتها وإسهاماتها في خلق التنمية والحفاظ على استدامتها. فلابد من الاعتناء بهذه العلوم ونشرها وتعليمها في المجتمع الإسلامي وفق مقتضيات العصر وعلى ضوء مقاربة تكاملية لتحقيق التكوين العلمي المتين للشخصية المسلمة حتى تكون جديرة بتحمل مسؤولية التنمية المستدامة خدمة لأوطانها وللإنسانية ككل.

المطلب الخامس: جدلية الإيجابية والتنمية المستدامة:

سعت السنة النبوية إلى تربية الإنسان المسلم على الإيجابية في الحياة باعتبارها شرطًا معنويًّا للاطلاع بمسؤولية الاستخلاف وعمارة الأرض التي أناطها الله تعالى به على الوجه الأكمل، ونهى عن العجز والكسل. فقال ﷺ: «الْمُؤْمِنُ الْقَوِيُّ خَيْرٌ وَأَحَبُّ إِلَى اللَّهِ مِنَ الْمُؤْمِنِ الضَّعِيفِ، وَفِي كُلٍّ خَيْرٌ احْرِصْ عَلَى مَا يَنْفَعُكَ، وَاسْتَعِنْ بِاللهِ وَلَا تَعْجِزْ...»[1]. وكان كثيرًا ما يتعوذ من «العجز والكسل»[2].

ومن أعظم التطبيقات العملية لذلك، دعوة ﷺ الإنسان المسلم إلى المبادرة بغرس فسيلة في لحظة من أشد اللحظات الحرجة التي يمكن أن يعيشها الإنسان وهي لحظة الشعور بقيام الساعة. قال ﷺ: «إِنْ قَامَتِ السَّاعَةُ وَفِي يَدِ أَحَدِكُمْ فَسِيلَةٌ فَلْيَغْرِسْهَا»[3]. فالمعنى المباشر للحديث الشريف، يفيد أن النبي ﷺ يوصي الإنسان بغرس الفسيلة حتى ولو كانت الدنيا على وشك الانتهاء بقيام الساعة. ويكتسي هذا الحديث الشريف أبعادًا ودلالات تنموية وحضارية لا يستطيع العقل البشري المقيد بالماديات والمنشغل

1- أخرجه مسلم في صحيحه، كتاب القدر، باب فِي الْأَمر بالقوة وترك العجز والاستعانة بالله وتفويض المقادير لله (8/56) حديث رقم (2664).

2- أخرجه النسائي في سننه، كتاب الاستعاذة، باب الاستعاذة من الحزن (1/1045) حديث رقم (5468/1).

3- أخرجه البزار في مسنده، مكتبة العلوم والحكم، المدينة المنورة، مؤسسة علوم القرآن، بيروت ط1، 1430هـ، 2009م، مسند أنس بن مالك (رضي الله عنه) (14/17) حديث رقم (7408) كما ورد الحديث بصيغة قَالَ رَسُولُ اللهِ ﷺ: "إِنْ قَامَتْ عَلَى أَحَدِكُمُ الْقِيَامَةُ وَفِي يَدِهِ فَسِيلَةٌ فَلْيَغْرِسْهَا"، أخرجه أحمد في مسنده، مسند أنس بن مالك (رضي الله عنه) (5/2727) حديث رقم (13100).

فقط بالشؤون الدنيوية أن يستوعبها. ففي لحظة من أصعب لحظات التاريخ الكوني، وهي لحظة وشوك قيام الساعة، تأتي وصية النبي ﷺ للإنسان الذي يعيش تلك اللحظة العصيبة بالمبادرة بغرس فسيلة في الأرض إن كانت بيده إن استطاع إلى ذلك سبيلا. مما يفيد أن الدين الإسلامي هو دين الأمل ودين التنمية المستدامة بامتياز، إذ ليس من الضروري أن يفكر الإنسان في جني ثمرة عمله مباشرة، فكل ما عليه هو التوكل على الله والمبادرة بفعل الخير في الأرض، فهو دين يشجع الإنسان على إعمارِ الأرضِ مهما كانت الظروف والأحوال، مرسخًا بذلك قيم الإيجابِية في الإنسان في كل الأحوالِ، متوخيًا بذلك تحقيق النفع في الكون. فقد حثَّ النبي ﷺ على كل فعل من أفعال الخير والنماء حتى ولو لم ير الفاعل ثمرته، كما جاء في هذا الحديثِ: «إن قامت الساعة»، أي: إذا ظَن أحدكم ظنا أكيدا أن القيامة بأشراطها ومواصفاتِها قد قامت «وفي يدِ أحدِكم فسِيلةٌ»، أي نبتة صغيرة مِنَ النخلِ، «فإنِ استطاع ألا تقوم حتى يغرِسها فليغرِسها»، أي يزرعها في التربةِ، ولا يترك عمل الخيرِ والنفعِ. وهذا حث استثنائي على العمل المنتج وفعلِ الخيرِ حتى في أصعب الظروفِ، ولو ظن صاحبه انعدام الانتفاعِ به. وفي ذلك توجيه نبوي إلى استمرارية الإنسان في عمل الخير والنماء إلى آخِرِ لحظة من عمره، بل إلى آخر لحظة من الدنيا. ومن نماذج الأحاديث الداعية إلى العمل في مجالات أخرى من الحضارة والعمران، في البناء والعمران مثل قوله ﷺ: «مَنْ بَنَى بُنْيَانًا مِنْ غَيْرِ ظُلْمٍ وَلَا اعْتِدَاءٍ أَوْ غَرَسَ غَرْسًا فِي غَيْرِ ظُلْمٍ وَلَا اعْتِدَاءٍ كَانَ لَهُ أَجْرٌ جَارٍ مَا انْتَفَعَ بِهِ مِنْ خَلْقِ اللهِ تَبَارَكَ وَتَعَالَى»[1]. وفي مجال الطب: قال ﷺ: فَقَالَ: «تَدَاوَوْا عِبَادَ اللهِ، فَإِنَّ اللهَ لَمْ يَضَعْ دَاءً إِلَّا وَضَعَ لَهُ دَوَاءً»[2]. وحضَّ على العمل والتجارة. فقد «سُئِلَ رَسُولُ اللهِ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَآلِهِ وَسَلَّمَ أَيُّ الْكَسْبِ أَطْيَبُ أَوْ أَفْضَلُ؟ قَالَ: «عَمَلُ الرَّجُلِ بِيَدِهِ، وَكُلُّ بَيْعٍ مَبْرُورٍ»[3]. وقَالَ أيضًا: «مَا أَكَلَ أَحَدٌ طَعَامًا قَطُّ، خَيْرًا مِنْ أَنْ يَأْكُلَ مِنْ عَمَلِ يَدِهِ، وَإِنَّ نَبِيَّ اللهِ دَاوُدَ عَلَيْهِ السَّلَامُ كَانَ يَأْكُلُ مِنْ عَمَلِ يَدِهِ»[4]. ونوه ﷺ بإتقان العمل، فقال: «إِنَّ اللهَ عَزَّ وَجَلَّ يُحِبُّ إِذَا عَمِلَ أَحَدُكُمْ عَمَلًا أَنْ يُتْقِنَهُ»[5]. هذه نماذج فقط من تجليات روح الإيجابية

1- أخرجه أحمد في مسنده، حديث رقم معاذ بن أنس الجهني (رضي الله عنه) (6/3327) حديث رقم (15856).

2- أخرجه ابن حبان في صحيحه، كتاب الطب، ذكر الأمر بالتداوي إذ الله جل وعلا لم يخلق داء إلا خلق له دواء خلا شيئين، (13/426) حديث رقم (6061).

3- أخرجه الحاكم في المستدرك على الصحيحين، دار المعرفة، بيروت، لبنان، كتاب البيوع، ليس منا من غشنا (2/10) حديث رقم (2168).

4- أخرجه البخاري في صحيحه، كتاب البيوع، باب كسب الرجل وعمله بيده (3/57) حديث رقم (2072).

5- أخرجه الطبراني في الأوسط باب الألف، من اسمه أحمد، أحمد بن يحيي الحلواني (1/275) حديث رقم (897).

التي يبثها الرسول الكريم في المؤمن من أجل العمل المنتج في مختلف مجالات العمران والحضارة والتنمية المستدامة، محفزًا على إتقان العمل لنيل محبة الله تعالى. وتلك درجة عظمى في الدنيا والآخرة.

المطلب السادس: جدلية الرحمة والتنمية المستدامة:

إذا تقرر لدينا في السابق أن الإسلام دين الأخلاق، فهو أيضًا دين الرحمة. فمن أسماء الله الحسنى الرحمن الرحيم وهي من البسملة التي تفتتح بها سور القرآن الكريم، وهو الغفور الرحيم، وأرحم الراحمين... والرحمة صفة من صفات الله تعالى التي تكرر ذكرها في القرآن الكريم على نطاق واسع في سياقات مختلفة، مما يؤكد أهمية صفة الرحمة في علاقة الله تعالى بخلقه، وفي مقدمتهم الإنسان. قال تعالى: ﴿وَرَحۡمَتِي وَسِعَتۡ كُلَّ شَيۡءٖ﴾ الأَعرَاف: 156 وقال على لسان ملائكته الكرام: ﴿رَبَّنَا وَسِعۡتَ كُلَّ شَيۡءٖ رَّحۡمَةٗ وَعِلۡمٗا﴾ غَافِر: 7. وقال سبحانه تعليمًا لرسوله ﷺ ردًّا على المشركين إن هم كذبوه: ﴿فَإِن كَذَّبُوكَ فَقُل رَّبُّكُمۡ ذُو رَحۡمَةٖ وَٰسِعَةٖ﴾ الأَنعَام: 147. وقرر سبحانه أنّ الرحمةَ لا تزول عنه أبدًا، فقال: ﴿كَتَبَ رَبُّكُمۡ عَلَىٰ نَفۡسِهِ ٱلرَّحۡمَةَ﴾ الأَنعَام: 54. وأكدت السنة النبوية على رحمة الله تعالى. عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ رضي الله عنه قَالَ: قَالَ رَسُولُ اللهِ ﷺ: «لَمَّا قَضَى اللهُ الْخَلْقَ كَتَبَ فِي كِتَابِهِ فَهُوَ عِنْدَهُ فَوْقَ الْعَرْشِ: إِنَّ رَحْمَتِي غَلَبَتْ غَضَبِي»[1]. وعنه أيضًا أنه سمع رسول الله ﷺ يقول: «جَعَلَ اللهُ الرَّحْمَةَ مِائَةَ جُزْءٍ، فَأَمْسَكَ عِنْدَهُ تِسْعَةً وَتِسْعِينَ جُزْءًا، وَأَنْزَلَ فِي الْأَرْضِ جُزْءًا وَاحِدًا، فَمِنْ ذَلِكَ الْجُزْءِ يَتَرَاحَمُ الْخَلْقُ، حَتَّى تَرْفَعَ الْفَرَسُ حَافِرَهَا عَنْ وَلَدِهَا خَشْيَةَ أَنْ تُصِيبَهُ»[2]. تأكيدًا على أهمية خلق الرحمة، لخص الحق سبحانه وتعالى مقصد بعثة الرسول الكريم، فجعلها رحمة للعالمين. فقال سبحانه: ﴿وَمَآ أَرۡسَلۡنَٰكَ إِلَّا رَحۡمَةٗ لِّلۡعَٰلَمِينَ﴾ الأَنبِيَاء: 107. وأثنى على صفة الرحمة في خلق الرسول الكريم، فقال عنه (سبحانه وتعالى): ﴿لَقَدۡ جَآءَكُمۡ رَسُولٞ مِّنۡ أَنفُسِكُمۡ عَزِيزٌ عَلَيۡهِ مَا عَنِتُّمۡ حَرِيصٌ عَلَيۡكُم بِٱلۡمُؤۡمِنِينَ رَءُوفٞ رَّحِيمٞ﴾ التَّوبَة: 128. وجعل سبحانه وتعالى القرآن الكريم كتاب رحمة. فقال (عز وجل): ﴿وَلَقَدۡ جِئۡنَٰهُم بِكِتَٰبٖ فَصَّلۡنَٰهُ عَلَىٰ عِلۡمٍ هُدٗى وَرَحۡمَةٗ لِّقَوۡمٖ يُؤۡمِنُونَ﴾ الأَعرَاف: 52. وقال سبحانه: ﴿وَنَزَّلۡنَا عَلَيۡكَ ٱلۡكِتَٰبَ تِبۡيَٰنٗا لِّكُلِّ شَيۡءٖ وَهُدٗى وَرَحۡمَةٗ وَبُشۡرَىٰ لِلۡمُسۡلِمِينَ﴾ النَّحل: 89.

1- أخرجه البخاري في صحيحه، كتاب بدء الخلق، باب ما جاء في قول الله تعالى وهو الذي يبدأ الخلق ثم يعيده (4/106) حديث رقم (3194).

2- أخرجه البخاري في صحيحه، كتاب الأدب، باب جعل الله الرحمة مائة جزء (8/8) حديث رقم (6000).

وأكدت السنة النبوية قيمة الرحمة في منظومة الأخلاق الإسلامية، منها قوله ﷺ: «الرَّاحِمُونَ يَرْحَمُهُمُ اللهُ، ارْحَمُوا أَهْلَ الْأَرْضِ يَرْحَمْكُمْ أَهْلُ السَّمَاءِ»[1]، وقوله ﷺ: «مَنْ لَا يَرْحَمُ لَا يُرْحَمُ»[2]، وقوله ﷺ: «لاَ تُنْزَعُ الرَّحْمَةُ إِلاَّ مِنْ شَقِيٍّ»[3]. غير أن الرحمة لا تشمل فقط الإنسان في علاقته بأخيه الإنسان؛ بل تشمل علاقته بمختلف الخلائق، مما يشكل حافزًا وموجهًا قويًّا للتنمية المستدامة. فقد ذكر النبي ﷺ في أحاديث عديدة جملة من الأعمال والتصرفات التنموية التي تبين بوضوح تلك العلاقة. ومن ذلك الحديث عن فضل الغرس والزرع وحفر الماء وغيرها من أعمال التنمية والنماء والخير، لما تحققه من الرحمة بالإنسان والحيوان والطير بتوفيرِ موارد العيش وتحقيق مختلف المنافع للإنسان وجميع المخلوقات. عَنْ أَنَسٍ رضي الله عنه قَالَ: قال رَسُولُ اللهِ ﷺ: «مَا مِنْ مُسْلِمٍ يَغْرِسُ غَرْسًا أَوْ يَزْرَعُ زَرْعًا، فَيَأْكُلَ مِنْهُ طَيْرٌ، أَوْ إِنْسَانٌ، أَوْ بَهِيمَةٌ، إِلَّا كَانَ لَهُ بِهِ صَدَقَةٌ».[4] وعَنْ جَابِرٍ أَنَّ النَّبِيَّ ﷺ دَخَلَ عَلَى أُمِّ مُبَشِّرٍ الْأَنْصَارِيَّةِ فِي نَخْلٍ لَهَا فَقَالَ لَهَا النَّبِيُّ ﷺ: «مَنْ غَرَسَ هَذَا النَّخْلَ ؟ أَمُسْلِمٌ أَمْ كَافِرٌ ؟ فَقَالَتْ: بَلْ مُسْلِمٌ، فَقَالَ: «لَا يَغْرِسُ مُسْلِمٌ غَرْسًا، وَلَا يَزْرَعُ زَرْعًا، فَيَأْكُلَ مِنْهُ إِنْسَانٌ وَلَا دَابَّةٌ وَلَا شَيْءٌ، إِلَّا كَانَتْ لَهُ صَدَقَةٌ»[5]. يبين النبي ﷺ في الحديثين الشريفين فضل الغرس والزرع في الحياة الدنيا والآخرة، لما فيهما من النفع والخير والرحمة بالخلائق من الإنسان وغيره. وفي ذلك أيضًا حضٌّ من النبي ﷺ على العمل التنموي المنتج في المجال الفلاحي، من غرس الأشجار والزراعة، وهو عمل يتعدى نفعه بالتأكيد الإنسان المنتج إلى غيره من المخلوقات من الإنسان والطير والبهيمة… ولذلك يضمن له الرسول الكريم أجر عمله المنتج عند الله تعالى معتبرًا إيَّاه من الصدقة التي يؤجر عليها عند الله تعالى.

1- أخرجه أبو داود في سننه، كتاب الأدب، باب في الرحمة (4/285) حديث رقم (4941). والترمذي في جامعه، أبواب البر والصلة عن رسول الله ﷺ، باب ما جاء في رحمة المسلمين (3/483) حديث رقم (1924) ثم قال: «هذا حديث حسن صحيح».

2- أخرجه البخاري في صحيحه، كتاب الأدب، باب رحمة الولد وتقبيله ومعانقته (8/7) حديث رقم (5997).

3- أخرجه الترمذي في جامعه، أبواب البر والصلة عن رسول الله ﷺ، باب ما جاء في رحمة الناس (3/482) حديث رقم (1923).

4- أخرجه البخاري في صحيحه، كتاب الحرث والمزارعة، باب فضل الزرع والغرس إذا أكل منه (3/103) حديث رقم (2320).

5- أخرجه مسلم في صحيحه، كتاب البيوع، باب فضل الغرس والزرع (5/27) حديث رقم (1552)، و(5/28) حديث رقم (1552).

وفق نفس التصور لأهمية العمل الزراعي، تحدث ﷺ عن أهمية حفر الماء، مبرزا أثره الخيري والتنموي في نفس الوقت. فقال: «مَنْ حَفَرَ مَاءً لَمْ يَشْرَبْ مِنْهُ كَبِدٌ حَرَّى مِنْ جِنٍّ وَلَا إِنْسٍ وَلَا طَائِرٍ إِلَّا آجَرَهُ اللهُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ، وَمَنْ بَنَى مَسْجِدًا كَمَفْحَصِ قَطَاةٍ أَوْ أَصْغَرَ بَنَى اللهُ لَهُ بَيْتًا فِي الْجَنَّةِ»[1]. في هذا الحديثِ أيضًا يُبيِّنُ النَّبيُّ ﷺ صورة أخرى من صور العمل الخيري والتنموي الذي يجسد قيمة الرحمة، ألا وهي حفر الماء لما يترتب عنه من رحمة بالعباد والبهيمة والطير. فيقولُ النَّبيُّ ﷺ: «مَن حَفَرَ ماءً»، أي: مَن حَفَرَ بِئرَ ماءٍ؛ لِيَسقيَ منه الناسَ، ما دام أنَّه حَفَرَه بهذه النِّيَّةِ ابتغاءَ مَرْضاةِ اللهِ سُبْحانَه، فقد نالَ أجْرَه، «لم يَشرَبْ منه كَبِدٌ حَرَّى من جِنٍّ، ولا إنسٍ، ولا طائرٍ»، أي: إنَّ كُلَّ كائنٍ قد شَرِبَ من هذا الماءِ، هو أجْرٌ يُكتَبُ لصاحِبِه يَنتفِعُ به في الآخِرَةِ، وقَولُه: «كَبِدٌ حَرَّى» من الحَرِّ، يُريدُ أنَّها لشِدَّةِ حَرِّها قد عَطِشَتْ ويَبِسَتْ من العَطَشِ، وقيل: أرادَ بالكَبِدِ الحَرَّى حَياةَ صاحِبِها؛ لأنَّه إنَّما تكونُ كَبِدُه حَرَّى إذا كان فيه حَياةٌ. وهكذا، يصوُّر لنا النبي ﷺ قيمة الرحمة من خلال هذا العمل الجليل الذي هو حفر الماء. وجعل هذا الفعل مقرونًا بفعل خيري آخر وهو بناء مسجد ولو كان صغيرًا في حجمه فإن جَزاءه عند الله أنْ يَبْنيَ له بيتًا في الجَنَّةِ. فدَلَّ هذا الحديثُ على سَعَةِ فَضْلِ اللهِ وكَرَمِه على عِبادِه، ودَلَّ أيضًا على أنَّ الإنسانَ لا يَنبَغي عليه أنْ يَدَّخِرَ الوُسْعَ في فِعلِ الخَيرِ، ولو كان قليلًا، فهو عِندَ اللهِ عَظيمٌ. وهو حديث يزخر بمعاني الرحمة والتنمية المستدامة من خلال التحفيز على حفر الماء باعتباره مصدر الحياة. وجمع الرسول الكريم في حديث آخر، بين فضل الماء والغرس، باعتبارهما من العمل الذي يجري نفعه للإنسان بعد موته، فقال ﷺ: «سَبْعٌ يَجْرِي لِلْعَبْدِ أَجْرُهُنَّ مِنْ بَعْدِ مَوْتِهِ وَهُوَ فِي قَبْرِهِ: مَنْ عَلَّمَ عِلْمًا، أَوْ كَرَى نَهَرًا، أَوْ حَفَرَ بِئْرًا، أَوْ غَرَسَ نَخْلًا، أَوْ بَنَى مَسْجِدًا، أَوْ وَرَّثَ مُصْحَفًا، أَوْ تَرَكَ وَلَدًا يَسْتَغْفِرُ لَهُ بَعْدَ مَوْتِهِ»[2].

وارتباطًا بموضوع الماء، تتوالى صور الرحمة النبوية الخادمة للتنمية المستدامة من خلال بيان أثر الماء في المنظومة البيئية. ولعل في قصة الكلب في الحديث الشريف خير نموذج لتجسيد العلاقة الجدلية بين قيمة الرحمة والتنمية البيئية المستدامة من خلال توفير نعمة الماء للحيوانات. عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ ﷺ: أَنَّ النَّبِيَّ ﷺ قَالَ: «بَيْنَا رَجُلٌ بِطَرِيقٍ، اشْتَدَّ

-1 أخرجه ابن خزيمة في صحيحه، دار الميمان، الرياض، السعودية، ط1، 1430هـ، 2009م، كتاب الصلاة، جماع أبواب فضائل المساجد وبنائها وتعظيمها، باب في فضل المسجد وإن صغر المسجد وضاق (2/444) حديث رقم (1292).

-2 أخرجه البزار في مسنده، مسند أنس بن مالك (رضي الله عنه) ، (13/483) حديث رقم (7289).

عَلَيْهِ الْعَطَشُ، فَوَجَدَ بِئْرًا فَنَزَلَ فِيهَا، فَشَرِبَ ثُمَّ خَرَجَ، فَإِذَا كَلْبٌ يَلْهَثُ، يَأْكُلُ الثَّرَى مِنَ الْعَطَشِ، فَقَالَ الرَّجُلُ: لَقَدْ بَلَغَ هَذَا الْكَلْبَ مِنَ الْعَطَشِ مِثْلُ الَّذِي كَانَ بَلَغَ مِنِّي، فَنَزَلَ الْبِئْرَ فَمَلَأَ خُفَّهُ مَاءً، فَسَقَى الْكَلْبَ، فَشَكَرَ اللَّهُ لَهُ فَغَفَرَ لَهُ، قَالُوا: يَا رَسُولَ اللَّهِ، وَإِنَّ لَنَا فِي الْبَهَائِمِ لَأَجْرًا ؟ فَقَالَ: فِي كُلِّ ذَاتِ كَبِدٍ رَطْبَةٍ أَجْرٌ»[1]. وفي الصحيحين وغيرهما، يروي أبو هريرة قصة مماثلة تجسد معنى الرحمة إزاء الكلب أيضًا من قبل بغية من بني إسرائيل، وما ترتب عن فعلها من فضل وخير للطرفين معا في الدنيا والآخرة: سقي الكلب وإنقاذ حياته، ومغفرة ذنوبها في الآخرة. عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ ﵁ قَالَ: «قَالَ النَّبِيُّ ﷺ بَيْنَمَا كَلْبٌ يُطِيفُ بِرَكِيَّةٍ كَادَ يَقْتُلُهُ الْعَطَشُ إِذْ رَأَتْهُ بَغِيٌّ مِنْ بَغَايَا بَنِي إِسْرَائِيلَ فَنَزَعَتْ مُوقَهَا فَسَقَتْهُ فَغُفِرَ لَهَا بِهِ»[2].

وفي مقابل هذا السلوك المجسد لقيمة الرحمة وأثرها في خدمة مختلف مكونات البيئة، يقدم لنا النبي ﷺ نموذجًا مخالفًا من باب التحذير والاعتبار، ويتعلق الأمر بقصة المرأة التي دخلت النار بسبب الهرة التي حبستها، فمنعتها من الطعام والماء. عَنِ ابْنِ عُمَرَ ﵄ عَنِ النَّبِيِّ ﷺ قَالَ: «دَخَلَتِ امْرَأَةٌ النَّارَ فِي هِرَّةٍ رَبَطَتْهَا فَلَمْ تُطْعِمْهَا وَلَمْ تَدَعْهَا تَأْكُلُ مِنْ خَشَاشِ الْأَرْضِ»[3]. وفي رواية أخرى عن أَبِي هُرَيْرَةَ قَالَ: قَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ: «دَخَلَتِ امْرَأَةٌ النَّارَ فِي هِرَّةٍ رَبَطَتْهَا، فَلَمْ تُطْعِمْهَا وَلَمْ تَسْقِهَا وَلَمْ تُرْسِلْهَا فَتَأْكُلَ مِنْ خَشَاشِ الْأَرْضِ»[4]. وإجمالًا، كان رسول الله ﷺ يحرص على تربية أمته على خلق الرحمة، لما فيه من فضل في الدنيا والآخرة. عَنْ عَبْدِ اللَّهِ بْنِ عَمْرٍو يَبْلُغُ بِهِ النَّبِيَّ ﷺ: «الرَّاحِمُونَ يَرْحَمُهُمُ الرَّحْمَنُ، ارْحَمُوا أَهْلَ الْأَرْضِ يَرْحَمْكُمْ مَنْ فِي السَّمَاءِ»[5]. وفي مسند الحميدي، قَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ:

1- أخرجه البخاري في صحيحه، كتاب المظالم، باب الآبار على الطرق إذا لم يتأذ بها (3/132) حديث رقم (2466)، ومسلم في صحيحه، كتاب قتل الحيات وغيرها، باب فضل سقي البهائم المحترمة وإطعامها (7/44) حديث رقم (2244).

2- أخرجه البخاري في صحيحه، كتاب أحاديث الأنبياء، باب حدثنا أبو اليمان (4/173) حديث رقم (3467)، ومسلم في صحيحه، كتاب قتل الحيات وغيرها، باب فضل سقي البهائم المحترمة وإطعامها (7/45) حديث رقم (2245).

3- أخرجه البخاري في صحيحه، كتاب بدء الخلق، باب خمس من الدواب فواسق يقتلن في الحرم (4/130) حديث رقم (3318)، ومسلم في صحيحه، كتاب التوبة، باب في سعة رحمة الله تَعَالَى وأنها سبقت غضبه (8/35) حديث رقم (2619).

4- أخرجه أحمد في مسنده، مسند أبي هريرة (رضي الله عنه) (3/1585) حديث رقم (7663).

5- أخرجه أبو داود في سننه، كتاب الأدب، باب في الرحمة (4/440) حديث رقم (4941).

«الرَّاحِمُونَ يَرْحَمُهُمُ الرَّحْمَنُ، ارْحَمُوا أَهْلَ الْأَرْضِ يَرْحَمْكُمْ أَهْلُ السَّمَاءِ»[1].

وهكذا، يؤكد الرسول الكريم أهمية خلق الرحمة في المنظومة البيئية والتنموية. فتصرفات الإنسان وسياساته المبنية على قيمة الرحمة والتراحم، لابد أن يكون لها الأثر الطيب على التنمية المستدامة التي يتعدى نفعها للإنسان إلى باقي الكائنات، وتسهم بشكل عملي في التنمية. فالعمل والإنتاج في الزراعة وغيرها من القطاعات الإنتاجية يحقق التراحم بين الإنسان وأخيه الإنسان بتلبية حاجياته الضرورية للعيش. ويبدو ذلك واضحًا مثلا، من خلال حالات الدعم والمساعدات الغذائية والماء الشروب للمجتمعات التي تعاني من الاضطرابات الطبيعية والعسكرية من الحروب والحروب الأهلية. كما يحقق التوازن والاستدامة في المنظومة البيئية بتوفير مقومات الحياة لفائدة الكائنات الحية. وبغض النظر عن الحالات الاستثنائية التي تمر بها البشرية، فالتشجيع على الإنتاج الزراعي والاقتصادي عموما في الإسلام بقدر ما يمكن الإنسان من تحقيق حاجياته التنموية؛ بقدر ما هو مظهر من مظاهر عبادة الله تعالى، فهو سبيل لنيل الأجر والثواب عند الله ﷻ. وهي ميزة عظمى يمكن أن تشكل أقوى حافز للإنسان المسلم للاجتهاد في التنمية.

المطلب السابع: جدلية التسامح والتنمية المستدامة:

ينبني القول في هذه الجدلية على التوجيهات النبوية للتعامل بين المؤمنين داخل دائرة الإسلام، ثم مع غير المسلمين. في مقدمة الأحاديث النبوية الشريفة التي نراها خادمة لهذا المبدأ قول الرسول ﷺ: «لَا يُؤْمِنُ أَحَدُكُمْ حَتَّى يُحِبَّ لِأَخِيهِ مَا يُحِبُّ لِنَفْسِهِ [2]». وفي رواية: «وَالَّذِي نَفْسِي بِيَدِهِ لَا يُؤْمِنُ عَبْدٌ حَتَّى يُحِبَّ لِجَارِهِ، أَوْ قَالَ: لِأَخِيهِ، مَا يُحِبُّ لِنَفْسِهِ» [3]. وفي رواية أخرى: «وَالَّذِي نَفْسُ مُحَمَّدٍ بِيَدِهِ، لاَ يُؤْمِنُ أَحَدُكُمْ حَتَّى يُحِبَّ لِأَخِيهِ مَا يُحِبُّ لِنَفْسِهِ مِنَ الْخَيْرِ»[4]. وفي رواية تنحو نحو تعميم الحكم ليشمل كافة الناس، قال رسول

1- أخرجه الحميدي في مسنده، المحقق/ حسين سليم أسد الداراني، دار المأمون للتراث، دمشق، دار المغني للنشر والتوزيع، الرياض، ط2، 1423هـ، 2002م، مسند عبد الله بن عمرو بن العاص (رضي الله عنه) (1/503) حديث رقم (602).

2- أخرجه البخاري في صحيحه، كتاب الإيمان، باب من الإيمان أن يحب لأخيه ما يحب لنفسه (1/12) حديث رقم (13).

3- أخرجه مسلم في صحيحه، كتاب الإيمان، باب الدليل على أن من خصال الإيمان أن يحب لأخيه ما يحب لنفسه من الخير (1/49) حديث رقم (45).

4- أخرجه النسائي في المجتبى، كتاب الإيمان وشرائعه، باب علامة الإيمان (1/971) حديث رقم (5032/5).

الله ﷺ: «لَا يَبْلُغُ عَبْدٌ حَقِيقَةَ الْإِيمَانِ حَتَّى يُحِبَّ لِلنَّاسِ مَا يُحِبُّ لِنَفْسِهِ مِنَ الْخَيْرِ»[1]. بتعدد روايات الحديث الشريف الصحيح تتعدد أبعاده ودلالاته الخيرية. يشترط النبي الكريم في هذا الحديث أنه لا يكتمل إيمان المؤمن حتى يحب لأخيه ما يحب لنفسه من مختلف الطاعات والفضائل والخيرات في الدين والدنيا، ويكره له ما يكره لنفسه. فالمؤمن إذن مأمور بأن يؤسس موقفه وسلوكه على مبدأ الإيمان إزاء أخيه المؤمن. فكل أنواع التصرفات من الطاعات والفضائل التي يحبها المؤمن لنفسه، والتي تجلب له النفع في علاقته بنفسه وخالقه وأخيه الإنسان وبيئته ومحيطه، يجب أن يحبها لأخيه المؤمن. وبالمقابل، يكره المؤمن لأخيه المؤمن ما يكره لنفسه من الأفعال والتصرفات، والتي تجلب له الضرر في دينه ودنياه. وباعتمادنا على الشمولية في المفهوم حسب روايات الحديث، تتمدد هذه المعاني لتشمل كل الناس.

وبناء عليه، ولما كان الإيمان قول وعمل، يظهر جليًّا أن الحديث النبوي الشريف يشكل دعوة صريحة إلى إشاعة قيم الحب والتآخي والخير والفضيلة بين عموم الناس، ونبذ قيم الكراهية والبغضاء وكل التصرفات والأفعال المشينة التي لا يرضاها الإنسان لنفسه، وبالتالي لا يرضاها لأخيه المسلم ولأخيه الإنسان بصفة عامة حسب التوجيه النبوي. لتسود بذلك الحياة الطيبة في مجتمع المؤمنين وفي المجتمع الإنساني عامة. وهي قيم أساسية للتماسك الاجتماعي والإنساني الشامل، كما أنها في نفس الوقت. شرط أساسي للتنمية المستدامة في المجتمع البشري. إذ لا يمكن أن تتحق التنمية أو التنمية المستدامة ويستفيد منها المجتمع والإنسانية بكافة فئاتها وأطيافها في غياب الإيمان بقيم التآخي والمحبة والتآزر والتضامن والتكافل بين أبناء المجتمع الإسلامي والبشرية ككل. فالإسلام من هذا المنطلق لا يقبل أن تسود قيم الحقد والكراهية الطبقية أو الفئوية أو العرقية أو الدينية أو غيرها بين أبناء المجتمع البشري وتسميم العلاقات بينهم، لما يترتب عنها من عواقب ومآلات سيئة في الدين والدنيا، من الحروب والاضطرابات وانعدام الأمن وانتشار الخراب والدمار، وبالتالي القضاء على التنمية. ولذلك، كان من الأعمال الجليلة التي قام بها ﷺ بعد الهجرة إلى المدينة تطبيق مبدأ المؤاخاة بين الأنصار والمهاجرين. ومن خلال التأمل في أولى قرارات التطبيق العملي لهذا المبدأ، أنها اتخذت أبعادًا تنموية اقتصادية،

1- أخرجه ابن حبان في صحيحه، كتاب الإيمان، باب ما جاء في صفات المؤمنين، ذكر البيان بأن نفي الإيمان عمن لا يحب لأخيه ما يحب لنفسه إنما هو نفي حقيقة الإيمان لا الإيمان نفسه (1/470) حديث رقم (234)، و(1/471) حديث رقم (235).

كما اتخذت أبعادًا اجتماعية. فقد بادر الأنصار مباشرة إلى اقتراح تقسيم ممتلكاتهم مع المهاجرين.عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ ﷺ قَالَ: قَالَتِ الْأَنْصَارُ لِلنَّبِيِّ ﷺ: اقْسِمْ بَيْنَنَا وَبَيْنَ إِخْوَانِنَا النَّخِيلَ. قَالَ: لَا، فَقَالُوا: تَكْفُونَا الْمُؤْنَةَ، وَنَشْرَكُكُمْ فِي الثَّمَرَةِ، قَالُوا: سَمِعْنَا وَأَطَعْنَا[1].

ويحدثنا عبد الرحمن بن عوف ﷺ عما وصلت إليه درجة هذه المؤاخاة، حيث فاقت القبول باقتسام الثروة المادية، إلى القبول باقتسام الزوجات على أساس شرعي. فيقول: «لَمَّا قَدِمْنَا الْمَدِينَةَ آخَى رَسُولُ اللهِ ﷺ بَيْنِي وَبَيْنَ سَعْدِ بْنِ الرَّبِيعِ، فَقَالَ سَعْدُ بْنُ الرَّبِيعِ: إِنِّي أَكْثَرُ الْأَنْصَارِ مَالًا، فَأَقْسِمُ لَكَ نِصْفَ مَالِي، وَانْظُرْ أَيَّ زَوْجَتَيَّ هَوِيتَ نَزَلْتُ لَكَ عَنْهَا، فَإِذَا حَلَّتْ تَزَوَّجْتَهَا»[2]. هذه الروح من المؤاخاة عند الأنصار، وجدت في المقابل روحًا من الزهد والتوكل على الله عند المهاجرين، «فَقَالَ عَبْدُ الرَّحْمَنِ: لَا حَاجَةَ لِي فِي ذَلِكَ، هَلْ مِنْ سُوقٍ فِيهِ تِجَارَةٌ ؟ قَالَ: سُوقُ قَيْنُقَاعَ، قَالَ: فَغَدَا إِلَيْهِ عَبْدُ الرَّحْمَنِ، فَأَتَى بِأَقِطٍ وَسَمْنٍ، قَالَ: ثُمَّ تَابَعَ الْغُدُوَّ، فَمَا لَبِثَ أَنْ جَاءَ عَبْدُ الرَّحْمَنِ عَلَيْهِ أَثَرُ صُفْرَةٍ، فَقَالَ رَسُولُ اللهِ ﷺ: تَزَوَّجْتَ، قَالَ: نَعَمْ، قَالَ: وَمَنْ، قَالَ امْرَأَةً مِنَ الْأَنْصَارِ، قَالَ: كَمْ سُقْتَ، قَالَ: زِنَةَ نَوَاةٍ مِنْ ذَهَبٍ، أَوْ نَوَاةً مِنْ ذَهَبٍ، فَقَالَ لَهُ النَّبِيُّ ﷺ: أَوْلِمْ وَلَوْ بِشَاةٍ»[3].

خلّد القرآن الكريم هذا النوع الفريد من الأخوة بين الأنصار والمهاجرين في قوله تعالى: ﴿ وَٱلَّذِينَ تَبَوَّءُو ٱلدَّارَ وَٱلۡإِيمَٰنَ مِن قَبۡلِهِمۡ يُحِبُّونَ مَنۡ هَاجَرَ إِلَيۡهِمۡ وَلَا يَجِدُونَ فِي صُدُورِهِمۡ حَاجَةٗ مِّمَّآ أُوتُواْ وَيُؤۡثِرُونَ عَلَىٰٓ أَنفُسِهِمۡ وَلَوۡ كَانَ بِهِمۡ خَصَاصَةٞۚ وَمَن يُوقَ شُحَّ نَفۡسِهِۦ فَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلۡمُفۡلِحُونَ ﴾ الحَشر: 9.

ولم يكتف النبي الكريم بالمؤاخاة بين المؤمنين المهاجرين والأنصار؛ بل أقر مبدأ التعايش بين المسلمين واليهود في مجتمع المدينة، وهو ما يسمى بـ«الموادعة»، حيث «كتب رسول الله ﷺ كتابًا بين المهاجرين والأنصار وادع فيه يهود وعاهدهم وأقرهم على دينهم»[4]، وذلك في إطار وثيقة دستورية فريدة من نوعها في التاريخ الإنساني، تعرف باسم

1- أخرجه البخاري في صحيحه، كتاب الحرث والمزارعة، باب إذا قال اكفني مؤونة النخل وغيره وتشركني في الثمر (3/104) حديث رقم (2325)، وفي كتاب الشروط، باب في المعاملة بالمثل (3/190) حديث رقم (2719)، وفي كتاب مناقب الأنصار، باب إخاء النبي ﷺ بين المهاجرين والأنصار (5/32) حديث رقم (3782).

2- أخرجه البخاري في صحيحه، كتاب البيوع، باب ما جاء في قول الله تعالى فإذا قضيت الصلاة فانتشروا في الأرض (3/52) حديث رقم (2048).

3- الحديث نفسه.

4- ابن هشام، السيرة النبوية، المحقق/ محمد محي الدين عبد الحميد، دار الفكر، بيروت، د.ت، (2/119).

«الصحيفة»[1]، وهي «كتابه ﷺ بين المهاجرين والأنصار واليهود وهو دستور الدولة البلدية بالمدينة»[2]؛ مؤسسًا بذلك لمفهوم المواطنة باعتباره النواة المركزية لبناء المجتمع والدولة في الإسلام، وأساس السلم المجتمعي الذي يعد أساس التنمية المستدامة.

فقد كتب رسول الله ﷺ في دستور المدينة: «وإن يهود بني عوف أمة مع المؤمنين»، وتكفّل لهم بجميع أنواع الحقوق؛ في مقدمتها حق الحياة والوجود بمجتمع المدينة في ظل دولة الإسلام، وحق التدين، فأقر ﷺ أن: «لليهود دينهم وللمسلمين دينهم مواليهم وأنفسهم»؛ وحق الحماية والدفاع، حيث كتب ﷺ: «وإن على اليهود نفقتهم، وعلى المسلمين نفقتهم، وإنّ بينهم النصر على من حارب أهل هذه الصحيفة». وأقر لهم كذلك حق العدل في المعاملة ورفع عنهم الظلم، حيث جاء في الصحيفة: «وأنه من تبعنا من يهود فإن له النصر والأسوة غير مظلومين ولا متناصر عليهم». وأقر لهم حقوقًا أخرى منها حق التملك، فلم يصادر أملاك أحد منهم، بل أقر المسلمين على التجارة معهم[3]. وكان ﷺ يعامل اليهود بالمال، ويفي لهم معاملتهم. عَنِ ابْنِ عُمَرَ رضي الله عنه: أَنَّ رَسُولَ اللهِ ﷺ أَعْطَى خَيْبَرَ الْيَهُودَ، عَلَى أَنْ يَعْمَلُوهَا وَيَزْرَعُوهَا، وَلَهُمْ شَطْرُ مَا خَرَجَ مِنْهَا [4]. كما تعامل معهم تجاريًّا. فعَنْ عَائِشَةَ رضي الله عنها قَالَتِ: اشْتَرَى رَسُولُ اللهِ ﷺ مِنْ يَهُودِيٍّ طَعَامًا، وَرَهَنَهُ دِرْعَهُ [5]. ولم تتغير علاقتهم بهم إلا بعد نقضهم العهود والمواثيق التي تجمعهم بالدولة النبوية. وكان ذلك طبقًا لدستور المدينة الذي جاء فيه: «لليهود دينهم وللمسلمين دينهم، مواليهم وأنفسهم، إلا من ظلم نفسه وأثم، فإنه لا يوتِغ - أي: يُهلِك - إلا نفسه وأهل بيته»[6].

وعلى غرار اليهود، أقر النبي ﷺ التعامل مع أهل الكتاب من النصارى واعترف لهم بالفضل حين تطلب الموقف ذلك. ولعل أوّل موقف سجله النبي الكريم في هذا السياق هو شهادته بالعدل لملك الحبشة النجاشي الذي كان على دين النصرانية. إذ لما رأى

1- المصدر نفسه.

2- محمد حميد الله، مجموعة الوثائق السياسية (ص59-62).

3- المرجع نفسه.

4- أخرجه البخاري في صحيحه، في كتاب الحرث والمزارعة، باب المزارعة مع اليهود (3/105) حديث رقم (2331).

5- أخرجه البخاري في صحيحه، كتاب الرهن، باب الرهن عند اليهود وغيرهم (3/143) حديث رقم (2513).

6- محمد حميد الله، مجموعة الوثائق السياسية (ص62)، أكرم ضياء العمري، السيرة النبوية الصحيحة (1/313).

رسول الله ﷺ أصحابه وما يصيبهم من البلاء والشدة، وأنه لا يقدر على منعهم وحمايتهم من قومهم، وأنه ليس في قومهم من يمنعهم كما منعه أبو طالب، وجههم للهجرة إلى أرض الحبشة، قائلاً لهم: «إن بها ملكا لا يظلم الناس ببلاده، في أرض صدق، فتحرزوا عنده حتى يأتيكم الله عز وجل بفرج منه ويجعل لي ولكم مخرجًا»[1]. وهو ما تحقق بالفعل. «فهاجر رجال من أصحابه إلى أرض الحبشة مخافة الفتنة وفرّوا إلى الله عز وجل بدينهم. واستخفى آخرون بإسلامهم»[2]. وعاشت جماعة المهاجرين على الإسلام في ظل عدل الملك النجاشي. وحين وفاته، أقام النبي ﷺ صلاة الغائب عليه. عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ رضي الله عنه: أَنَّ رَسُولَ اللهِ ﷺ نَعَى النَّجَاشِيَّ فِي الْيَوْمِ الَّذِي مَاتَ فِيهِ، خَرَجَ إِلَى الْمُصَلَّى فَصَفَّ بِهِمْ وَكَبَّرَ أَرْبَعًا»[3]. وفي رواية أخرى عَنْ جَابِرٍ رضي الله عنه: قَالَ النَّبِيُّ ﷺ حِينَ مَاتَ النَّجَاشِيُّ: «مَاتَ الْيَوْمَ رَجُلٌ صَالِحٌ، فَقُومُوا فَصَلُّوا عَلَى أَخِيكُمْ أَصْحَمَةَ»[4]. وكلتا الروايتين تؤكد تعظيم النبي ﷺ لهذا الملك العادل في حياته ومماته.

ومع تطور الدعوة الإسلامية، أقرَّ ﷺ عهدًا مع نصارى نجران حين قدومهم عليه عقب غزوة تبوك في العام التاسع للهجرة، وهو عهد «يمثل قمة من قمم العدل والسماحة والحرية، تمكن بفضله الرسول ﷺ من استيعاب كل النصارى؛ نصارى نجران وكل المتدينين بالنصرانية، في صلب الأمة الواحدة، ومن تبديد هاجس خوف النصارى الذي ظل نصارى نجران يعانون منها طيلة سنوات خلت[5]. وضمن الرسول الكريم بموجب هذا العهد جملة من الحقوق للنصارى، منها حرية الاعتقاد؛ حيث نص العهد على أنه «لا يجبر أحد ممن كان على ملة النصرانية كرهًا على الإسلام»، وحرية ممارسة الشعائر التعبدية واحترام الأساقفة والرهبان وعدم التعرض لهم بالتغيير، وحق إقامة المعابد، وحمايتها، وحرية التزوج مع المسلمين دون مساس بحرية الاعتقاد. وضمن لهم حقوقهم المالية، بتطبيق العدل في القضاء والمساواة في تحمل الأعباء المالية، فريضة إلهية شاملة لكل الأمة على اختلاف معتقداتها الدينية؛ إذ نصَّ العهد على أنه «لا خراج ولا جزية إلا على من يكون في يده ميراث

1- ابن إسحاق، سيرة ابن إسحاق (ص154).
2- المصدر نفسه.
3- أخرجه البخاري في صحيحه، كتاب الجنائز، باب الرجل ينعى إلى أهل الميت بنفسه (2/72) حديث رقم (1245).
4- أخرجه البخاري في صحيحه، كتاب مناقب الأنصار، باب موت النجاشي (5/51) حديث رقم (3877).
5- عبد الهادي بوطالب، من قضايا الإسلام المعاصر (ص76)، فاروق حمادة، العلاقات الإسلامية النصرانية في العهد النبوي (ص113، 117).

من ميراث الأرض ممن يجب عليه فيه للسلطان حق، فيؤدي ذلك على ما يؤديه مثله، ولا يجار عليه، ولا يحمل منه إلا قدر طاقته وقوته على عمل الأرض وعمارتها وإقبال ثمرتها، ولا يكلف شططًا، ولا يتجاوز به حد أصحاب الخراج من نظرائه»[1].

وضمن لهم ﷺ كل الحقوق التي ترقى إلى تحقيق المساواة الكاملة مع المسلمين بقوله: «لأني أعطيتهم عهد الله على أن لهم ما للمسلمين، وعليهم ما على المسلمين. وعلى المسلمين ما عليهم بالعهد الذي استوجبوا حق الذمام، والذب عن الحرمة، واستوجبوا أن يذبَّ عنهم كل مكروه، حتى يكونوا للمسلمين شركاء فيما لهم، وفيما عليهم»[2]. كما اشترط عليهم واجبات من صميم الانتماء إلى الأمة والدولة التي احتضنتهم، وضمنت لهم المواطنة الكاملة في إطار المساواة والحرية مع مختلف الشركاء باختلاف أديانهم. وتعزز بعض الأحاديث النبوية الشريفة هذا المنهج النبوي المثالي في حماية أهل الذمة. منها قول الرسول الله الكريم: «أَلَا مَنْ ظَلَمَ مُعَاهَدًا أَوِ انْتَقَصَهُ، أَوْ كَلَّفَهُ فَوْقَ طَاقَتِهِ، أَوْ أَخَذَ مِنْهُ شَيْئًا بِغَيْرِ طِيبِ نَفْسٍ فَأَنَا حَجِيجُهُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ»[3]. وقوله كذلك في حماية حياة المعاهد: «مَنْ قَتَلَ نَفْسًا مُعَاهَدًا لَمْ يَرَحْ رَائِحَةَ الْجَنَّةِ، وَإِنَّ رِيحَهَا يُوجَدُ مِنْ مَسِيرَةِ أَرْبَعِينَ عَامًا»[4].

إن التدبير النبوي للاختلاف الديني بترسيخ قيم التعايش والتسامح مع أهل الكتاب، يتجاوز كونه فقط تطبيق مثالي لمبدأ حرية الاعتقاد، الذي يلخصه قوله تعالى: ﴿لَآ إِكۡرَاهَ فِي ٱلدِّينِ﴾ البَقَرَة: 256 وقوله تعالى: ﴿فَمَن شَآءَ فَلۡيُؤۡمِن وَمَن شَآءَ فَلۡيَكۡفُرۡ﴾ الكَهف: 29؛ بل إنه تدبير تنموي بامتياز. ذلك أن ضمان حقوق أهل الكتاب في الأمة والدولة في العهد النبوي، ومن خلالها الأمة الدولة الإسلامية عبر التاريخ، يمكن من استيعاب مختلف مكونات المجتمع رغم اختلاف انتماءاتها الدينية، وتحقيق التماسك الاجتماعي والأمن الروحي والاجتماعي،

1- محمد حميد الله، مجموعة الوثائق السياسية (ص188).

2- المرجع نفسه (189-188).

3- أخرجه أبو داود في سننه، كتاب الخراج والفيء والإمارة، باب في تعشير أهل الذمة إذا اختلفوا بالتجارة (3/136) حديث رقم (3052)، والبيهقي في سننه، الكبير، كتاب الجزية، جماع أبواب الشرائط التي يأخذها الإمام على أهل الذمة وما يكون منهم نقضا للعهد، باب لا يأخذ المسلمون من ثمار أهل الذمة ولا أموالهم شيئًا بغير أمرهم إذا أعطوا ما عليهم وما ورد من التشديد في ظلمهم وقتلهم (9/205) حديث رقم (18799).

4- أخرجه البخاري في صحيحه، كتاب الجزية، باب إثم من قتل معاهدا بغير جرم (4/99) حديث رقم (3166)، وفي كتاب الديات، باب إثم من قتل ذميا بغير جرم (9/12) حديث رقم (6914).

وتحرير طاقات مختلف الفئات الاجتماعية الدينية، وتوجيهها نحو العمل والإنتاج والإسهام في تحقيق التنمية المستدامة التي تعود بالنفع العميم على كافة المجتمع. في حين أن غياب مثل تلك السياسة النبوية الرشيدة يؤدي بدون شك إلى طغيان النزعة الطائفية وزعزعة الأمن الروحي والاستقرار الاجتماعي، مما يؤثر سلبًا على وتيرة التنمية المستدامة.

ولم تقتصر دروس التدبير النبوي للاختلاف الديني على المستوى الداخلي، بل تجاوزت ذلك إلى المستوى الخارجي، بتدبير العلاقة مع الآخر المخالف في الدين، على أساس العدل وحسن الجوار والسلم، مصداقًا لقوله تعالى: ﴿ لَّا يَنْهَىٰكُمُ ٱللَّهُ عَنِ ٱلَّذِينَ لَمْ يُقَٰتِلُوكُمْ فِى ٱلدِّينِ وَلَمْ يُخْرِجُوكُم مِّن دِيَٰرِكُمْ أَن تَبَرُّوهُمْ وَتُقْسِطُوٓاْ إِلَيْهِمْ إِنَّ ٱللَّهَ يُحِبُّ ٱلْمُقْسِطِينَ ﴾ المُمتَحنَة: 8. قال ﷺ في توجيه عملي لعلي بن أبي طالب رضي الله عنه لما بعثه إلى خيبر، وأمره أن يدعو اليهود إلى الإسلام: «انْفُذْ عَلَى رِسْلِكَ حَتَّى تَنْزِلَ بِسَاحَتِهِمْ ثُمَّ ادْعُهُمْ إِلَى الْإِسْلَامِ وَأَخْبِرْهُمْ بِمَا يَجِبُ عَلَيْهِمْ فَوَاللَّهِ لَأَنْ يَهْدِيَ اللَّهُ بِكَ رَجُلًا خَيْرٌ لَكَ مِنْ أَنْ يَكُونَ لَكَ حُمْرُ النَّعَمِ»[1]. وأرسى ﷺ قواعد الدبلوماسية الدولية من خلال مراسلته لعدد من زعماء وملوك عصره لدعوتهم إلى الإسلام، بأسلوب يراعي المقام، ويبعث على الاحترام ويحترم السيادة. فكان في كل رسائله يصف الملك أو الزعيم بالعظمة. ومن ذلك قوله ﷺ مخاطبا ملك الحبشة: «هَذَا كِتَابٌ مِنْ مُحَمَّدٍ النَّبِيِّ إِلَى النَّجَاشِيِّ الأَصْحَمِ، عَظِيمِ الْحَبَشَةِ...» [2]. وفي رسالته إلى قيصر الروم، يقول: «مِنْ مُحَمَّدٍ رَسُولِ اللَّهِ إِلَى هِرَقْلَ عَظِيمِ الرُّومِ...»[3]؛ وفي رسالته إلى كسرى فارس، يقول: «مِنْ مُحَمَّدٍ رَسُولِ اللَّهِ إِلَى كِسْرَى عَظِيمِ فَارِس...»[4]؛ ويقول في رسالته إلى المقوقس حاكم مصر: «مِنْ مُحَمَّدِ بْنِ عَبْدِ اللَّهِ إِلَى الْمُقَوْقس عَظِيمِ الْقِبْطِ...»[5]. وكان ﷺ حريصًا على الاهتمام بالوفود الدبلوماسية التي تفد إليه على اختلاف أديانها ومعتقداتها، فكان يكرمها استقبالًا وضيافةً وتجمُّلًا وإهداء...وبلغ به الأمر أن أوصى بهم، وهو في اللحظات الأخيرة من حياته، فكان

1- أخرجه البخاري في صحيحه، كتاب الجهاد والسير، باب دعاء النبي ﷺ الناس إلى الإسلام (4/47) حديث رقم (2942)، وفي كتاب الجهاد والسير، باب فضل من أسلم على يديه رجل (4/60) حديث رقم (3009).

2- انظر نصوص رسائل النبي ﷺ في: محمد حميد الله، الوثائق السياسية (ص100).

3- المرجع نفسه (ص109).

4- المرجع نفسه (ص143).

5- المرجع نفسه (ص135).

مما أوصى به ﷺ عند وفاته بثلاث، منها وصيته: «وَأَجِيزُوا الْوَفْدَ بِنَحْوِ مَا كُنْتُ أُجِيزُهُمْ»[1]. ومعناه: «أَجِيزُوا الْوَفْدَ أَيْ أَعْطُوهُمْ، وَالْجَائِزَةُ الْعَطِيَّةُ»[2].

كثيرة، إذن، هي الدروس والعبر التي يمكن استثمارها من خلال الهدي النبوي الشريف في التعامل الدبلوماسي مع الآخر/ المخالف في الدين على مستويات مختلفة من تدبير العلاقات الاجتماعية والدولية من منظور إسلامي وإنساني عالمي. ولعل من أهم تلك الدروس والعبر التي يمكن التوقف عندها ونحن نحاول تشكيل صورة الإنسان الجديد بتحقيق التنمية المستدامة، هي شرعية التأسيس لتحالف إنساني كوني من أجل التنمية المستدامة، يجمع كل الإنسانية باختلاف انتماءاتها الدينية والثقافية والسياسية من أجل إنقاذ المنظومة البيئية ومعها الحياة البشرية من الانهيار والدمار الذي يتهددها، وعلاج الاختلالات الخطيرة التي تنتج عن التصرفات والسياسات والممارسات غير الرشيدة للإنسان في مواجهة الطبيعة. والإسلام بأصوله التشريعية، ومنها الحديث الشريف موضوع اشتغالنا في هذا البحث، وبتجربته التاريخية والحضارية كفيل بترشيد الوعي والسلوك البشري نحو مزيد من التعاون على الخير والمعروف لتحقيق التنمية المستدامة لفائدة الإنسانية.

1- أخرجه البخاري في صحيحه، كتاب الجهاد والسير، باب هل يستشفع إلى أهل الذمة ومعاملتهم (4/69) حديث رقم(3053).

2- ابن حجر العسقلاني، فتح الباري بشرح صحيح البخاري، اعتنى به أبو قتيبة نظر محمد الفاريابي، دار طيبة، الرياض، ط1، 1426هـ، 2005م، كِتَاب الْجِهَادِ وَالسِّيَرِ، بَاب جَوَائِزِ الْوَفْدِ وبَاب هَلْ يُسْتَشْفَعُ إِلَى أَهْلِ الذِّمَّةِ وَمُعَامَلَتِهِمْ (7/301) حديث رقم (3053)، وفي كِتَاب الْمَغَازِي، بَاب مَرَضِ النَّبِيِّ ﷺ وَوَفَاتِه (9/590) حديث رقم (4431).

خاتمة البحث

في ختام هذا البحث، يمكن تسجيل النتائج التالية:

أولا: دراسة وتحليل علاقة الإنسان بالتنمية المستدامة من منظور السنة النبوية، تشكل قيمة مضافة في مقاربة قضايا وإشكالات التنمية المستدامة في العصر الراهن؛ بما يسهم في تعزيز دور البحث العلمي في التأكيد على أهمية السنة النبوية باعتبارها مصدرًا تشريعيًّا تعنى بمعاش الإنسان ومعاده من جهة، وباعتبار الحاجة الملحة للبشرية إلى التوجيه النبوي في زمن الاضطرابات العقدية والاختلالات في النماذج التنموية المهددة للحياة البشرية فوق سطح الأرض من جهة أخرى.

ثانيًا: المنظور الإسلامي في تحقيق التنمية المستدامة ينطلق من مكانة الإنسان المركزية في الكون، باعتبار شرف التكريم الذي حظي به الإنسان دون سائر الخلائق؛ وعليه تتأسس مسؤولية الاستخلاف في الأرض التي تقتضي منه النهوض بواجب التنمية المستدامة وبناء العمران في الأرض وفق الضوابط الشرعية.

ثالثًا: بناء الإنسان شرط أساس للنهوض بواجب التنمية المستدامة. فالإنسان الجدير بتحمل مسؤولية التنمية المستدامة على ضوء السنة النبوية، لا بد أن تتوفر فيه جملة من الخصائص التي تشكل منظومة من القيم النابعة من عمق العقيدة والشريعة الإسلامية البانية للإنسان والعمران معًا. وفي هذا السياق تضمن البحث جملة من الخصائص التي بحثنا عن سندها الشرعي في السنة النبوية، مع محاولة تشخيص علاقتها الجدلية بالتنمية المستدامة، حيث تمت صياغتها على شكل ثنائيات مفاهيمية تربط بينها علاقة جدلية، وهي كالتالي: جدلية الإيمان والتنمية المستدامة؛ جدلية الصلاح والإصلاح والتنمية المستدامة؛ جدلية العلم والتنمية المستدامة؛ جدلية الأخلاق والتنمية المستدامة؛ جدلية الإيجابية والتنمية المستدامة؛ جدلية الرحمة والتنمية المستدامة؛ جدلية التسامح والتنمية المستدامة.

رابعًا: هذه الخصائص/القيم السبع تشتغل في إطار منظومة نسقية تكاملية لبناء وتأهيل الإنسان الصالح والجدير بتحمل مسؤولية التنمية المستدامة.

خامسًا: على الرغم من استناد هذه القيم/ الخصائص إلى أساس شرعي يمثل الخصوصية الحضارية للأمة الإسلامية من خلال السنة النبوية، إلا أنها تكتسب طبيعتها

الإنسانية العابرة للخصوصيات، خاصة وأنها لا تتخذ من المعتقد حاجزًا دون التحالف بين بني البشر للنجاح في معركة التنمية المستدامة والحفاظ على الكوكب الذي يعيش عليه الجميع؛ بل هي محاولة لتوظيف الحديث النبوي على واجهتين: داخلية تخص المسلمين، باعتماد الهدي النبوي في التحفيز والتأطير للمواقف والممارسات في التنمية المستدامة؛ وخارجية لتبليغ التوجيهات النبوية إلى كافة البشر وإبراز العمق الإنساني والتنموي والبيئي للحديث الشريف؛ استلهامًا للهدي النبوي في ترسيخ الإيمان بمسؤولية الإنسان عن مآل العمران البشري والتنمية المستدامة، وتعضيده بالعلم والأخلاق والإيجابية والرحمة والتسامح. كل ذلك في سبيل بناء تحالف إنساني من أجل التنمية المستدامة فوق كوكب الأرض.

أهم توصيات البحث:

يوصي البحث بما يلي:

1. التنويه بمشروع جامعة الوصل لعقد مؤتمرات سنوية للحديث الشريف، باعتبارها فرصة علمية دولية لعلماء الإسلام لتنوير البشرية بما تكتنزه السنة النبوية الشريفة من قيم ومبادئ وأحكام وتوجيهات لصياغة المواقف وتأطير الممارسات والسياسات حول قضايا الإنسانية ومن أهمها التنمية المستدامة.

2. بذل مزيد من الجهود للتعريف بالقيم والأحكام الدينية الإسلامية المستمدة من السنة النبوية في مجال البيئة والتنمية المستدامة، وتعزيز حضور السنة النبوية في مقاربة قضايا البيئة والتنمية المستدامة في البرامج التعليمية والإعلامية والملتقيات الدولية المتخصصة.

3. إيلاء مزيد من العناية والاهتمام بتربية الأجيال الناشئة على التحلي بقيم الإيمان والعلم والأخلاق والصلاح والإيجابية والرحمة والتسامح في سبيل حماية البيئة وتحقيق التنمية المستدامة.

4. تعزيز دور المعرفة الدينية الصحيحة في مقاربة قضايا البيئة والتنمية المستدامة في البرامج التعليمية والإعلامية والملتقيات الدولية المتخصصة.

5. تعزيز دور علماء الدين في الملتقيات والمؤتمرات العالمية للبيئة والتنمية المستدامة،

إلى جانب المتخصصين في مجالات أخرى ذات الصلة بالموضوع.

6. تشكيل تحالف عالمي إنساني للبيئة والتنمية المستدامة بمشاركة علماء الأديان السماوية تحت إشراف الأمم المتحدة.

7. تشجيع البحث العلمي في الجامعات العربية والإسلامية في السنة النبوية حول قضايا البيئة والتنمية المستدامة.

8. صياغة مشاريع استراتيجية إسلامية للبيئة والتنمية المستدامة انطلاقا من القرآن الكريم والحديث الشريف، وتقديمها إلى الأمم المتحدة والهيئات الدولية المهتمة لتقديم الإسهام الإسلامي في التنمية المستدامة.

9. إحداث جائزة دولية للبحث في الحديث النبوي الشريف تخصُّ القضايا والتحديات المعاصرة للبشرية، منها: جائزة الحديث النبوي الشريف للبيئة والتنمية المستدامة.

لائحة المصادر والمراجع

المصادر:

- القرآن الكريم.
- البحر الزخار المعروف بمسند البزار، للإمام أبو بكر البزار، أحمد بن عمرو، مكتبة العلوم والحكم، المدينة المنورة، مؤسسة علوم القرآن، بيروت، ط1، 1409-1430هـ، 1988-2009م.
- جامع الترمذي، للإمام الترمذي، محمد بن عيسى بن سَوْرة الترمذي، دار الغرب الإسلامي، بيروت، لبنان، 1996 - 1998م.
- سنن ابن ماجه، للإمام ابن ماجه، أبو عبد الله محمد بن يزيد القزويني، دار الرسالة العالمية، ط1، 1430هـ، 2009م.
- سنن أبي داود، للإمام أبي داود، سليمان بن الأشعث السجستاني، المكتبة العصرية، صيدا، بيروت.
- السنن الكبرى للإمام البيهقي، أبو بكر أحمد بن الحسين بن علي، مجلس دائرة المعارف العمانية بحيدر آباد الدكن، الهند، ط1، 1352- 1355هـ، (ترقيم الأحاديث، وفق ترقيم شركة حرف؛ وهو ما يظهر في خدمة التخريج وقوائم نتائج البحث؛ لعدم وجود ترقيم في النسخة المطبوعة).
- سنن النسائي، للإمام النسائي، أبو عبد الرحمن أحمد بن شعيب النسائي، دار المعرفة للطباعة والنشر والتوزيع، بيروت، لبنان، ط1، 1428هـ، 2007م.
- سيرة ابن إسحاق المسماة بكتاب المبتدأ والمبعث والمغازي، لابن إسحاق، المحقق/ محمد حميد الله، نشر معهد الدراسات والأبحاث للتعريب، الرباط، 1396هـ، 1976م.
- السيرة النبوية، لابن هشام (ت218هـ)، المحقق/ محمد محي الدين عبد الحميد، دار الفكر، بيروت، د.ت.
- صحيح ابن حبان، للإمام ابن حبان، محمد بن حبان البُستي، مؤسسة الرسالة، بيروت، لبنان، ط2، 1414هـ، 1993م.

- صحيح ابن خزيمة، للإمام ابن خزيمة، أبو بكر محمد بن إسحاق، دار الميمان، الرياض، السعودية، ط1، 1430هـ، 2009م.
- صحيح البخاري، للإمام البخاري محمد بن إسماعيل أبو عبدالله البخاري، دار طوق النجاة، بيروت، ط1، 1422هـ.
- صحيح مسلم، للإمام مسلم، أبو الحسين مسلم بن الحجاج القشيري النيسابوري، دار إحياء الكتب العربية، القاهرة.
- فتح الباري في شرح صحيح البخاري، للإمام ابن حجر العسقلاني، اعتنى به أبو قتيبة نظر محمد الفاريابي، دار طيبة، الرياض،ط1، 1426هـ، 2005م.
- المستدرك على الصحيحين للإمام النيسابوري، أبي عبد الله الحاكم، دار المعرفة، بيروت، لبنان (ترقيم الأحاديث، وفق ترقيم شركة حرف؛ وهو ما يظهر في خدمة التخريج وقوائم نتائج البحث؛ لعدم وجود ترقيم في النسخة المطبوعة).
- مسند أحمد، للإمام ابن حنبل، أحمد بن محمد، جمعية المكنز الإسلامي، دار المنهاج، ط1، 1431هـ، 2010م.
- مسند الحميدي، للإمام الحميدي، أبو بكر عبد الله بن الزبير الحميدي، دار المأمون للتراث، دمشق، دار المغني للنشر والتوزيع، الرياض، ط2، 1423هـ، 2002م.
- المعجم الأوسط للإمام الطبراني، سليمان بن أحمد الطبراني، دار الحرمين، القاهرة، ط1، 1415هـ، 1995م.
- المقدمة، لابن خلدون (ت808هـ/1406م)، المحقق/ إبراهيم شبوح وإحسان عباس، ج1، تونس، 2006م.
- الموافقات، للإمام أبي إسحاق الشاطبي، إبراهيم بن موسى اللخمي الغرناطي المالكي (ت790هـ)، تحقيق وتعليق/ الحسين أيت سعيد، منشورات البشير بنعطية، فاس المغرب، ط1، 1438هـ، 2017م.

المراجع الحديثة:

- الإسلام والتنمية المستدامة (رؤية كونية جديدة)، عودة راشد الجيوسي، عمان، الأردن، 2013م.
- التنمية المستدامة في السنة النبوية، فراس بن ساسي، بحث لنيل الماجستير في الحديث الشريف، المعهد العالي للحضارة الإسلامية، تونس، 2018-2017م.
- السيرة النبوية الصحيحة، لأكرم ضياء العمري، مكتبة العلوم والحكم، المدينة المنورة، ط6، 1996-1415م.
- العلاقات الإسلامية النصرانية في العهد النبوي، فاروق حمادة، دار القلم، دمشق، 2004م.
- القيم الحضارية في السنة النبوية، ندوة دولية علمية ثالثة، الأمانة العامة لندوة الحديث الشريف، كلية الدراسات الإسلامية والعربية، دبي، الإمارات العربية المتحدة، ط1، 1428هـ، 2007م.
- من قضايا الإسلام المعاصر، عبد الهادي بوطالب، مطبعة النجاح، البيضاء ط1، 2004م.

المقالات:

- "كيف أمر الإسلام بالمحافظة على الثروة المائية" للأمراني، محمد بن أحمد، مجلة دعوة الحق، عدد 299، 1993م.
- الموسوعات والمواقع الإلكترونية والبرامج الحاسوبية:
- الموقع الإلكتروني للأمم المتحدة: مؤتمرات https://www.un.org/ar/conferences/environment
- الموقع الإلكتروني للأمم المتحدة: التنمية
- https://www.un.org/sustainabledevelopment/ar
- (https://www.guidetosunnah.com/ar/websites/show/160)

- برنامج جامع خادم الحرمين الشريفين الملك عبد الله بن عبد العزيز للسنة النبوية المطهرة.
- مصحف المدينة للنشر المكتبي، نسخة 2.6، مجمع الملك فهد لطباعة المصحف الشريف،المدينة المنورة، 1438هـ.